محتوى مادة تحليل الخطاب

المحاضرة الاولى

تعد اللغة الطبيعية نظاما علاميا مميزا من بين الأنظمة العلامية الأخرى، فهي تختلف عن لغات الحيوانات، ولغات الإشارة الجسمية، ولغة الصم والبكم، ولغة المرور..وإن كان هناك بعض الخصائص التي تجمع بينها.

تعدت تعريفات اللغة تعددا كبيرا، إذ كل عالم وكل دارس ينطلق من تخصصه في إعطاء مفهوم لها، لأنها قاسم مشترك بين جميع العلوم والتخصصات، ولكننا سنعرض تعريفا جامعا، من منطلق لساني، فنقول: هي نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطا، والتي تتسم بقبولها التجزئة، ويتخذها الفرد عادة وسيلة تعبير عن أغراضه، ولتحقيق الاتصال بالآخرين، وذلك بواسطة الكلام والكتابة.

وانطلاقا من التعريف السابق يمكن أن نحدد مجموعة من

الخصائص التي تتميز بها اللغة الطبيعية عند الإنسان، كالآتي:

١-كونها نظاما يقوم على مجموعة من العلاقات الاستبدالية، والائتلافية، كما أن هذا النظام قابل للتجزيئ، لأنه يتكون من مستويات (الصوت، البنية، التركيب، الدلالة).

- الإبداعية: إمكانية فهم وإنتاج عدد لا محدود من العبارات.

٣- الاعتباطية: أي ليس ثمة علاقة طبيعية بين الدال والمدلول.

٤- إمكانية التعلم، حيث يستطيع الإنسان أن يتعلم أكثر من لغة، غير لغته الأم.

٥-الانعاكسية: إذ يمكن استعمال اللغة في تحليل ودراسة اللغة ذاتها، كأن نقول الكلمة: اسم، وفعل، وحرف.

٦-الانتقال الثقافي: في مقابل الانتقال الوراثي عند الحيوان، حيث تنتقل اللغة من جيل إلى جيل عن طريق التعلم والتعليم.

للغة وظائف عامة، من حيث هي وسيلة لها علاقة بفكر الإنسان وعواطفه، ولها وظائف خاصة باعتبارها أداة تستعمل في موقف تخاطبي له عناصره .

والوظائف العامة للغة حسب علماء تحليل الخطاب هي:

١- اللغة وسيلة للتفكير.

٢- اللغة وسيله للتعبير والتبليغ.

٤-اللغة وسيلة للتواصل.

٥- اللغة وسيلة لحفظ التراث

أما الوظائف الخاصة فسنركز في تحديدها على ما جاء عند ياكبسون، والذي جعلها ستا، كل وظيفة لها علاقة بعنصر من عناصر الموقف التخاطبي:

1. **الوظيفة التعبيرية (أو الانفعالية، أو العاطفية، حسب ترجمة كل دارس لها) : وهي تتمحور حول المتكلم، حيث يبلغ موقفه وشعوره تجاه حدث ما**
2. **٢-الوظيفة الافهامية (الندائية): وهي تُعنى بالسامع، وبها تأخذ اللغة شكلها الاتصالي، كما يتضح ذلك في النداء، وفي الأمر وفي التمني.**
3. **٣-الوظيفة المرجعية: وهي تتمحور حول المرجع، أو السياق، أو المقام.**
4. **٤- الوظيفة الانتباهية (إقامة الاتصال): وهي تتعلق بالقناة، حيث تعمل على استمرار التواصل، وتجَدده، وذلك بإبقاء انتباه المتلقي نشطا، ودفع الفتور الذي قد يعتري عملية التواصل أو يهددها بالانقطاع.(كاستعمال التنبيهات: مرحبا، هل تسمعني، فهمتني، واضح....)**

٥- -الوظيفة اللسانية الواصفة (البيانية) : وهي تتعلق بطبيعة اللغة المستعملة في عملية التواصل، حيث يجب أن تكون متماثلة عند الطرفين، واضحة، وإلا احتاجت إلى بيان وتفسير، فالمتلقي قد يسأل عن معنى كلمة، أو عبارة صادرة من الباث، فيضطر هذا الأخير إلى توضيح ذلك، وتصبح في تلك اللحظة اللغة هي الهدف بعد ما كانت وسيلة في الاصل

٦- ٦-الوظيفة الشعرية (أو الجمالية، أو البلاغية، أو الانفعالية): وتتمحور حول الرسالة ذاتها، وتتضافر محاور البلاغة في أداء هذه الوظيفة، سواء الصور البيانية (علم البيان)، أو المحسنات البديعية (علم البديع)، أو انتقاء الأساليب (علم المعاني).

وننبه هنا أن ما يجمع كل هذه الوظائف هو الهدف التواصلي، لأن التواصل يغطي حياة الإنسان كلها، وهو يتم بأشكال كثيرة، بداية باللغة وانتهاء بالإشارة، والألوان، والرسومات، والموسيقى، ومن ثم تتنوع وسائله، من مثل لسان، وقلم، وهاتف، وتلفاز، وما إلى ذلك. ولكن تبقى اللغة (الشفهية والكتابية) هي الوسيلة الأمثل، والشكل الأهم في عملية التواصل الإنساني

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة

مدخل إلى المفاهيم الإجرائية التي يقوم عليها علم تحليل الخطاب

المحاضرة الثانية

مدخل إلى المفاهيم الإجرائية التي يقوم عليها علم تحليل الخطاب

لغةً: من خَطَبَ: يقال خاطَبَهُ، يُخَاطِبُهُ خِطاباً، والخُطْبَةُ من ذلك، وهي: الكلام المَخْطُوبُ به. والخَطْب: الأمر يقعُ، وإنَّما يُسَمَّى بذلك لما يقعُ فيه من التَّخاطُب والمُراجَعَة. وفَصْلُ الخِطاب: أي خِطابٌ لا يكونُ فيه اخْتِصارٌ مُخلٌّ ولا إسْهَابٌ مُمِلٌّ

مفهوم الخطاب في التراث

لقد عرف التهانوي الخطاب بأنه" توجيه الكلام نحو الغير للإفهام" ، و نجده كذلك عند أبي البقاء الكفوي في كتابه " الكليات" حيث يقول : " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، و الكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا". وهو في مَا أقرّه مَجْمعُ اللغة العربية بالقاهرة: الكلام بين اثنين بوساطة شَفَهية أو مَكْتُوبة أو مَرْئِيَة، والخِطَابُ: الرِّسَالةُ،

مفهوم الخطاب من المنظور اللساني

ويرى جون أدام أنه : "إنتاج مترابط ومتسق ومنسجم، وليس رصفا اعتباطيا للكلمات والجمل وأشباه الجمل"

بينما هو عند ميشال فوكو:"شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي تنتج فيها الكلام كخطاب".

وهوعند بنفنست:"كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، بحيث يحاول المتكلم التأثير على المستمع بطريقة ما".

وجاء في قاموس اللسانيات:الخطاب "هو مجموع الملفوظات اللسانية الخاضعة للتحليل، فهو إذن عينة من السلوك الإنساني المكتوب أو المنطوق".

ويمكن صياغة تعريف عام للخطاب من خلال ما سبق، فنقول:

إن الخطاب هو "كل ملفوظ أو مكتوب يشكل في حد ذاته وحدة تواصلية، كل ملفوظ أو مكتوب يؤدي غرضا تواصليا معينا في موقف تواصلي معين، بقطع النظر عن كونه نصا أو جملة أو مركبا أو كلمة مفردة"وهذا التعريف يفرض علينا تحديد مفهومين ضروريين هما: التحليل والجملة.

مفهوم التحليل من المنظور اللساني

لغةً: من حلّل العقدة: أي فكها وحلّل الشيء: أرجعه إلى عناصره الأولى. وحلَّلْت اليمين أحلِّلها تحليلا: أي لمْ أفعلْ إلاَّ بقَدْر ما حلَّلتُ به قَسَمي أنْ أفْعَلَهُ ولمْ أُبالغ، ثمَّ كثُر هذا في كلامهم حتَّى قيل لكل شيء لمْ يُبالغ فيه تحليلٌ.

اصطلاحا: هو بيان أجزاء الشيء ووظيفة كل جزء فيها ويقوم على التفسير والتأويل والعمل على جعل النص واضحًا جليّاً، دون مبالغة في ذلك أو إخلال فيه.

مفهوم (الجملة) من منظور علم تحليل الخطاب

ظهر في تعريف الجملة عند اللسانيين أكثر من ثلاثمئة تعريف تختلف في وجه من وجوه التحديد والرسم، وسنركز على تعريفين منها فقط:

١- تعريف بلومفيلد: هي شكل لغوي مستقل، لا يدخل عن طريق أي تركيب نحوي في شكل لغوي أكبر منه، مثل: كيف حالك؟ إنه يوم جميل، هل ستلعب بكرة التنس هذا المساء

٢- تعريف إبراهيم أنيس: هي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا بنفسه، سواء تركب من كلمة أو أكثر. مثل: (هلا)، (بداية التدريبات الأسبوع القادم).

مميزات مجال تحليل الخطاب

ككل علم يتميز تحليل الخطاب بمجموعة من الملامح نجملها فيما يأتي:

١- تعدد المرجعيات التأسيسية (بنيوية، وظيفية، توليدية تحويلية).

٢- تعدد الأشكال النصية (سردية، شعرية).

٣- انفتاحه على جملة من التخصصات: من مثل: علم النفس، وعلم الاجتماع، ونظرية الإعلام، والذكاء الاصطناعي.

٤- كثرة المصطلحات في المفهوم الواحد، (الخطاب، النص، القول، الملفوظ)، (تحليل الخطاب، لسانيات الخطاب، لسانيات النص، نحو النص، علم اللغة النصي، نظرية النص، السانيات النقدية...).

من أعلام علم تحليل الخطاب

من أشهر علماء تحليل الخطاب الغربيين: جان ميشال أدام، وغريماس، وتودوروف، وبارت، وجوليا كريستيفا، وميخائيل ريفاتير، وأندريه مارتنيه.

هل هناك الفرق بين النص والخطاب؟

لقد يتباينت مواقف الدارسين في رصد طبيعة العلاقة بين الخطاب والنص تداخلاً ، وتقاطعاً ، وتكاملاً ، وتلك الآراء تمحورت حول موقفين رئيسيين:

١- موقف يقوم على عدم التمييز بينهما ، واستخدامهما بمعنى واحد، أو للدلالة على شيء واحد ، الذي هو العمل الأدبي الذي ما فتئ أصحاب هذا الموقف يطلقون عليه تارة مصطلح خطاب ، وتارة مصطلح نص .

٢ - موقف يقوم على التمييز بينهما ، واستخدامهما بمعنى مختلف ، أو للدلالة على معان وقيم نوعية مختلفة ، ينطوي عليها أو يقوم على أساسها العمل الأدبي .

ومن اللافت للنظر أن المعاجم اللغوية العربية تميز بين هذين المصطلحين دلالياً ، فالخطاب يدور حول:

١ - الخطاب :المواجهة بالكلام بين اثنين أو أكثر .

٢ - الخطبُ :الشأن أو الأمر صغُر أوعظُم .

٣ - الخطبة : طلب النكاح .

٤ - الخُطبة : إلقاء الكلام بغية التأثير والإقناع.

وأما النص فتشير مدلولاته المعجمية إلى :

١ - النص : رفع الشيء وإظهاره وجعله بارزاً عما سواه .

٢- نص الشيء : حركه من موضعه.

٣ - نص المتاع : رتبه ووضع بعضه على بعض .

٤ - نصصت الرجل : إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده.

٥ - نص كل شيء : منتهاه وأقصاه وغايته.

والذين ميزوا بينها انقسمو إلى هناك أربع فئات على الشكل الآتي:

فئة تفرق بينهما على أساس تكاملي ، أي على أساس أن النص يمثل شكل العمل الأدبي ، أو بنيته السطحية الظاهرة ، أما الخطاب فيمثل مضمونه الباطن ، أو بنيته العميقة ، وذكر منهم (روجر فاولر)

٠ وفئة أقامت التفريق على أساس ما بينهما من عموم وخصوص ، أو على أساس اتفاقهما في شيء أو صفة ، واختلافهما في شيء أو صفة أخرى ، وهي الفئة التي جعلت الخطاب يتصل بالجانب التركيبي ، وجعلت النص يتصل بالجانب الكتابي ، وذكر منهم (ليتش وزميله شورت) اللذين جعلا الفرق يكمن في زاوية النظر إلى هذا الفعل ، فالخطابية سمة متعلقة بعملية الإنتاج ، والنصية سمة نوعية متعلقة بعملية التلقي .

وفئة تفرق بين الخطاب والنص على أساس ما بينهما من تداخل وتمازج ، فالنص هو ما ينصصه الخطاب ، أي ما يظهره ويذكر منهم الدكتور الحميري (فان ديك) الذي يعرف الخطاب بأنه السياق التداولي للنص فالخطاب لديه " هو في آن واحد ، فعل الإنتاج اللفظي "للنص" ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية

وأما الفئة الرابعة فتقيم تفريقها على أساس المظهر الكتابي الذي يتحلى به النص دون الخطاب وذكر منهم (بول ريكور) الذي يعتبر النص كل خطاب مثبت بواسطة الكتابة ... فالخطاب تنتجه اللغة الشفوية ، بينما النصوص تنتجها الكتابة .

ملاحظة :

تبنينا _في هذا المستوى_النظرة التي لا ترى فرقا بين النص والخطاب.

المحاضرة الثالثة

أنواع الخطابات

إن الخطاب ليس شكلا واحدا، وإنما هو أشكال مختلفة ومتنوعة، ولكل شكل خصائصه ومزاياه، ومعرفة نوع الخطاب وشكلِه يعينان المحلل على استدعاء الأدوات اللازمة، والملائمة للخطاب المراد تحليله ودراسته شكلا ومضمونا.

وهناك اعتبارات كثيرة يقسم في ضوئها الخطاب، نذكر أهمها:

من حيث الموضوع: خطاب ديني، وخطاب فلسفي، وخطاب إعلامي، وخطاب سياسي، وخطاب اقتصادي..

من حيث البعد الحضاري: خطاب تراثي، وخطاب حداثي.

من حيث الوسيلة المستعملة: خطاب لغوي، وخطاب غيرلغوي.

من حيث مستوى اللغة: خطاب فصيح، وخطاب عامي

من حيث نوع اللغة: خطاب أدبي ، وخطاب علمي.

من حيث طريقة الأداء: خطاب شفوي، وخطاب كتابي.

ومحللو الخطاب تعاملوا مع كل هذه الأنواع، وقاربوها بآليات تتناسب وخصوصية كل خطاب، وسنركز نحن على الاعتبارين الأخيرين، لما لهما من ارتباط بالجانب اللساني، وبالجانب الأدبي، إذ سنبين خصائص الخطابات التالية: الأدبي والعلمي، الشفهي والكتابي.

خصائص الخطاب الأدبي:

١- اعتماد الإيحاء وتكثيف الدلالة:

كما في قوله تعالى: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٥٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم:"الضعيف أمير الركب". حيث يشير إلى آداب السفر، والعطف على الضعيف.

٢-استعمال الآليات الجمالية (الصورة، المجاز، المحسن البديعي).

كقول الشاعريصف أمته وقد تقاعست عن الدفاع عن نفسها:

وفي كل يوم صيحة من خيولها=ينوح لها الإسلام والشرك باسم

٣-هدفه إمتاعي بالدرجة الأولى.

خصائص الخطاب العلمي

١-اعتماد اللغة المباشرة.

٢-استعمال المصطلح.

٣-اعتماد المنطقية في عرض الأفكار.

٤-هدفه الإخبار.

٥- لا يعتمد التكرير.

وسنعرض الآن نصين في موضوع واحد، ولكن بأسلوبين مختلفين، تتجلى فيهما الخصائص التي ذكرناها :

النص الأول:

((القمرُ أقربُ بكثير إلى الأرض من أيِّ جرم آخر في السماء ، لا يتعدّى بعده عن الأرض معدلَ ٣٨٤٠٠٠ كلم ، وهو ما يعادل تقريبا عشرةَ أضعاف طول خط الاستواء الأرضي ، إنه جرمٌ صغير إذا ما قورن بالأرض ، فكتلته أقلُّ من كتلتها بكثير ، ووزنه النوعي أخفُّ من وزنها ، لكن التفاوت بين الأرض والقمر أقلُّ مما هو عليه بين السيارات ، وقطره ٣٤٧٦ كلم))

النص الثاني:

((يا قمرُ يا ملـكَ النجوم ، إنا هُدنا إليك نجتلي طلعتك فهلاَّ أعرْتنا سمعَك ؟ يا قمرُ... يا أخا الشمس ويا راعيَ العشاق ، إنها أنفاسٌ صادقة ، ونجواتٌ هامسةٌ فاضتْ مديدةً كأحلامك الخالدة ، وأضوائك المنسابة ، وخطراتك التي جلتـْها يد السماء وأبدعتها قدرة الخلاق .

يا قمر من أنت ؟ حارتْ فيك العقول ، وشُدهت النظرات ، وضلَّ الهيام بخلابتك.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن الخطاب الشفوي والخطاب الكتابي

المحاضرة الرابعة

الخطاب المكتوب والخطاب الشفوي

إن الأصل في اللغة أن تكون منطوقة لا مكتوبة ، دائرة على الألسن لا مسجلة في بطون الكتب ، وقد ظلت اللغات دهراً طويلاً لا تعرف الكتابة ولا تفكر فيها حتى إن بعض اللغات القديمة نشأت وترعرعت ثم اندثرت قبل اختراع الكتابة.

ولذلك قال ابن جني (ت٣٩٢هـ) في تعريفها وهو يلتفت إلى الجانب الصوتي منها " أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ، وهو تعريف يخرج الكتابة من حيث هي عنصر من عناصر اللغة ، وهو دليل على أن علماء اللغة القدماء لم يدرسوا اللغة العربية على أنها لغة مكتوبة ،

بل على أنها لغة منطوقة قائمة على الأصوات المسموعة وهو ما يؤكده منهج هؤلاء العلماء في جمع اللغة عن طريق الرواية والمشافهة ، ويدعم ذلك حديثهم عن السماع كأصل من أصول البحث اللغوي.

ولذلك رأينا من الضروري بيان خصائص الخطاب الشفوي ، في مقابل خصائص الخطاب المكتوب، مع الإشارة إلى أن علم تحليل الخطاب يعنى بالشكلين معا، مع تركيز أكثر على الخطاب الشفوي

خصائص الخطاب الشفوي:

السرعة في الأداء، وقلة المجهود المبذول.

اللغة التلقائية: ليس لديه الوقت الواسع للتفكير فيما سيقوله، بل هو يقوم بعمليات كثيرة في وقت واحد، يحضر الكلام، ثم يقوله، ويحضر ما سيأتي بعده ليكون كلامه متجانسا، ثم إن الكلمة المنطوقة ليست أكثر من الصورة الصوتية اللحظية أو الآنية التي تحدث مرة واحدة فلا تقبل الإعادة ، ولا تقبل التصحيح .

ثنائي (مرسل-مستقبل): وكل واحد يرى استجابة الآخر، فيعدّل في مستويات الخطاب: النبرة، الوضوح، درجة الصوت، مستوى اللغة.

معرض لسوء الفهم، ولمعوقات التخاطب، مثل الضجيج، والأصوات الموجودة في المكان.

ملزم بمراعاة قواعد التخاطب : الالتزام بالوقت، تبادل الأدوار

وحدة المقام : إن الشفوية تعني فيما تعنيه، أن المتكلم والمتلقي أصبحا في مقام واحد، وظروف واحدة، وزمن واحد، فلا يشعر أي طرف أنه بعيد عن الطرف الآخر، وخاصة المستقبل، إذ يتيقن أنه المقصود وحده دون غيره بالخطاب، فيزداد بذلك اهتمامه، واستعداده للتأثر، سواء بقبول الرسالة أو ردها، ومن ثم فالشفاهية تعني وحدة العرف، والإطار المرجعي اللغوي بين المرسل والمتلقي، إذ يجمعها عصر واحد ومكان واحد.

استعانته باللآليات التخاطبية غير اللغوية: كالإشارات، وملامح الوجه.

قوة التأثير : يقول في ذلك رشيد رضا " إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته، وإشاراته، ولهجته في الكلام، يساعد على مراده من كلامه، وأيضا يمكن للسامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلام.

خطاب تحاوري، في مقابل الخطاب الحواري، أي أنه يتفاعل مع خطابات السامع أو المستمعين، فيأخذ منهم بعض الكلمات، أو العبارات، أو حتى نمط الخطاب. (السرعة، مستوى اللغة).

خصائص الخطاب المكتوب:

بينما يمتاز الخطاب المكتوب بـ:

يتطلب وقتا أطول، وجهدا أكبر.

وحيد الجانب: صعوبة مراعاة المتلقي، ورصد استجابته.

أقل تعرضا لسوء الفهم:لأن لغته تتميز بالثبات.

أكثر إلزاما ويمكن الرجوع إليه وقت الحاجة:لأن الكلام يندثر مع انتهاء عملية التلفظ، عكس المكتوب فإنه يتجاوز المقام بمكانه وزمانه، بل هما يمضيان ويبقى هو حاضرا، يبقى مرجعا إذا ما احتيج الرجوع إليه، وتتجلى أهمية هذه الخاصية وقت النزاع، وفي المحاكم مثلا.

الافتقار إلى الأنظمة التخاطبية غير اللغوية: رغم أنه يحاول استدراك ذلك بوسائل متعددة، منها علامات الترقيم، والمقام. وعبارات التصوير.

ثم إن محللي الخطاب حين درسوا هذين النوعين من الخطاب لاحظوا أن هناك فروقا حتى على مستوى اللغة، ككثرة الروابط في اللخطاب المكتوب، كالعلامات الزمانية مثل:عندما، في حين، بينما، وكذلك ما يعرف بوسائل الربط المنطقي، من مثل:

(إلى جانب ذلك)، (إضافة إلى)، (زيادة على ذلك)، (بالرغم من) وتنوعها، على عكس الخطاب الشفوي الذي يعتمد على التجاور، وحروف العطف مثل: (الواو، (ثم)، كما يكثر فيه (أي الخطاب الشفوي) الكلمات المكملة، مثل: (طبعا، أظن، أقصد، فهمتني)، كما يتميز بقصر الجمل، وبالتكرار، وبالكلمات المعيارية، مثل : جيد رائع، ممتاز..

ورغم أن الخطاب الشفهي قد يتحول إلى خطاب مكتوب، إلا أنه يبقى محافظا على كثير من مميزاته، من خلال الكتابة، وبتلك المميزات ندرك أن أصله شفهي، ومن تلك الدلائل: علامات الترقيم، خاصة التي تعبر عن الانفعالات، من خلال التنوعات الصوتية: علامة التعجب، علامة الاستفهام،

والشرطة التي تدل على تبادل الأدوار في الحوار مثلا، وهذا الأمر يصدق على النصوص التراثية خاصة منها جنس الخطبة، والمناظرات، والشعر، ومن هذا النوع القرآن الكريم الذي لم يفقد ملامحه الشفاهية، بل حافظ عليها بكل امتياز، ومن ملامح الشفاهية فيه:

الكتابة الصوتية: أو ما يسمى بالرسم العثماني، وهورسم توقيفي.

التناغم الداخلي والخارجي (يسميه بعضهم الموسيقى الداخلية والخارجية). التناسق في أصوات الكلمات، وفواصل الآيات.

كثرة الأفعال الإنجازية: كالأمر والنهي والنداء.

رموز أحكام التلاوة : ومما يدل على الشفاهية في الخط القرآني، هو تلك الرموز التي يلاحظها في المصحف، خارج الكلمات كالواو الصغير بعد هاء الوصل، والتي تدل على المد بحركتين، أو وجود علامة (~) فوق الحرف للدلالة على المد الطويل، كذلك عدم شكل حروف الإخفاء والإدغام للدلالة على موضعها، إضافة إلى تحديد مواضع الوقف من الوصل،

نماذج خطابية (النص الأول)

وسنقدم الآن مجموعة من النصوص يتتبع فيها الطالب ملامح الخطاب الشفوي، والخطاب الكتابي:

النص الأول

١- قوله تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ هود ٤٢-٤٣

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ٤٤

النص الثاني

٢- قول الشاعر الحطيئة يخاطب سيدنا عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ = زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
أسكنت عائلهم في قعر مظلمة = فارحم هداك مليك الناس يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه = ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها= لكن لأنفسهم كانت بك الإثر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم = بين الأباطح يغشاهم بها القدر
نفسي فداؤك كم بيني وبينهم = من عرض داوية يعمى بها الخبر

النص الثالث:

٣- قول أحد الأدباء:

ابن الليل أجول بين أمواج السدول وضفاف النجوم. ليلي لا فجر له ولا قمر، أنيره ببوصلة قلمي وأضواءِ كلماتي وابتسامةِ القمر الأسود. أنا لست متنبي زماني، بل نبي أخضع لسلطة شيطانِ شعري، لا أعصي لها أمرا،أنا ابن الليل ونديم أشباح الليل على أرصفة الليل. أشباح أرصّع بها أوراقي وهوامش فجر أيامي.

وقوله :

أسير نحو النجمة والنجمة تسير نحو السماء ،والسماء تجري نحو ورقتي، لتضع عليها ما كتب لها على اللوح المحفوظ.

أسير نحوك أيتها النجمة وتسيرين أنت نحوي، وحتى أنت يا سماء الخلد تسيرين نحوي مسيرة لا مخيرة، وورقتي تسير نحو نفسها لإضاءة طريق النجمة صوب السماء.

"أنت الشاعر تسير للقاء حتفك، والنجمة تسير للقاء قدرها، والسماء تسير بحسبان صوب عالم لا يفهم فيه لا الشاعر ولا النجمة ولا الورقة، فعد إلى رشدك أيها الشاعر، ليغرنك شيطان شعرك الرجيم ولتجدن نفسك منبوذا من طرف النجمة والورقة والسماء التي هي سماوات لا نهاية لها" قال لي حكيم الأزمنة القابع في قلب القصيدة.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
شروط الخطاب ومستويات تحليله

المحاضرة الخامسة

شروط الخطاب
ومستويات تحليله

لقد لاحظ منظرو تحليل الخطاب،ومنهم (درسلرDressler وبوجراندBeaugrande)أن الخطاب لا يتحقق له الاكتمال النصي إلا إذا توافرت فيه مجموعة من الشروط والمقاييس، هي:

١-الانسجام: ويكون على مستوى البنية السطحية وهو يتم بمجموعة من الوسائل اللسانية الرابطة بين عناصر الجملة، وبين الجمل، والتي تسمح لملفوظ ما شفوي، أو كتابي، بأن يبدو في شكل خطاب.

والعوامل التي يعتمد عليها الترابط السطحي للخطاب، هو ما يتمثل في المؤشرات اللغوية، مثل: علامات العطف، والوصل والفصل، والترقيم، وكذلك أسماء الإشارة، وأدوات التعريف، والأسماء الموصولة، وأبنية الحال والزمان والمكان، والتكرار، وغير ذلك من العناصر السببية، التي يعنى علم اللغة بتحديدها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة ونقدم نصا نبين فيه نماذج من هذه المؤشرات:

يقول الزمخشري في كتابه أطواق الذهب في المواعظ والخطب : يا ابن أبي وأمي! هات حديث الآباء والأمهات، وحدّث عن رجال العشيرة وكرام الأخلاء والجيرة، من الجار الجنب، وماس الطنب. ومن جاثيناه على الركب، وجاريناه في كشف الكرب. ومن رفدَنا بالخير ورفدناه، وأفادنا الحكمة وأفدناه. قد اقتضاهم من أوجدهم أن يفنَوا، وخلت عنهم الديار كأن لم يغنوا. وكفى بمكانهم واعظاً لو صودف من يتعظ، وموقظاً عن الغفلة لو وجد من يستيقظ.

لقد ورد في هذا النص كثير من المؤشرات اللغوية التي تعمل على إحداث التماسك السطحي للنص، ومنها:

حرف العطف (الواو)، وكان الأنسب دون غيره من الحروف العاطفة

التعريف بالإضافة (ابن أبي، وكرام الأخلاء)، وبـ(أل) الجنب، الطنب. الركب.

التكرار: رفدنا ..رفدناه، وأفادنا ...أفدناه. واعظاً .. يتعظ، وموقظاً... يستيقظ.

٢-التناسق: ويكون على المستوى الدلالي، وهذا التماسك الدلالي يتجاوز الخط اللغوي إلى المفاهيم والمعاني، إذ تستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم الكل، ويؤدي الفصل بين الأجزاء إلى عدم وضوح النص، كما يؤدي عزل أو إسقاط عنصر من عناصره إلى عدم

تحقيق الفهم، ويفسر هذا بوضوح من خلال مصطلحي: (الوحدة الكلية)،و(التماسك الدلالي) للخطاب.(المثال على ذلك القصيدة الحديثة)

٣-القصدية: وقد مر بنا تعريف أبي البقاء الكفوي للخطاب في كتابه " الكليات" حيث يقول : " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، و الكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا".

٤- القبول: أو المقبولية وتتعلق بموقف المتلقي الذي يقر بأن المنطوقات اللغوية تكوِّن نصا متماسكا، مقبولا لديه.(لا نقصد هنا المقبولية على مستوى المفاهيم والقضايا، والدليل على هذا التفريق، قبول الكفار قريش للقرآن بناءً رغم أنهم رفضوه تشريعا).

ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته

٥- الإخبار: إذ بها تتحدد جِدَّة النص، أي توقع المعلومات الواردة فيه، أو عدم توقعها، إذ قد تكون جديدة تماما، كما قد تكون معلومة من قبل عند السامع، إلا أن المتكلم يريد تبليغ موقفه منها،

فقولنا: أنت نجحت.

قد تأتي للإخبار بالنجاح لمن لم يسبق له أن سمعه.

كما قد تأتي للإعلام بالموقف من هذا النجاح: الفرح، التعجب، الإستهزاء.

٦- المقامية: أو الموقفية وهي مناسبة الخطاب للموقف، إذ لا وجود لخطاب بدون أن يكون مظروفا في مقامه (فالخطاب القرآني مرتبط بأسباب النزول، والخطاب الشعري مقرون بمناسبة القصيدة،)، ولا يمكن أن نعين حقا معنى لخطاب خارج المقام، زيادة على هذا فالخطاب يساهم في تحديد مقامه، ويمكن ان يحوزه أثناء التلفظ

من نماذج ذلك المثل مضربا وموردا، يقول التهانوي: "المَثَلُ في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر - أي الفاشي - الممثل مضربه بمورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها، وبالمضرب الحالة المشابهة بها التي ورد فيها الكلام".

وقد بني المثل الاصطلاحي عند العلماء على الركائز التالية: المورد، والمضرب والنقل على الحكاية وعدم التغيير في الرواية، والسيرورة، والغرابة،إضافة إلى الإيجاز، والتكثيف..

نحو قولهم: الصيفَ ضيعت اللبن " فإن هذا القول يشبه قولك: " أهملت وقت الإمكان أمرك"، أو قولهم: : " جَزَاءَ سِنِمَّارٍ. أي جَزَاني جزاءَ سنمار، وهو رجل رومي بَنَى الخَوَرْنَقَ الذي بظَهْر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتاً، وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثلَه لغيره، فضربت العرب به المثلَ لمن يجزي بالإحسان الإساءة.

أوقولهم صَفْقَةٌ لَمْ يَشْهَدْهَا حَاطِبٌ.
هو حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ، وكان حازماً وباع بعضُ أهله بيعةً غُبِنَ فيها حين لم يَشْهَدْها حاطب، فضرب هذا المثل لكل أمرٍ يُبْرَمُ دون صاحبه

٧- التناصية: ويقصد بها تبعية الخطاب لخطابات أخرى، أو تداخله معها، فكل تلفظ _ولو أنجز بدون حضور جهة تلفظ أخرى- هو تبادل صريح أو ضمني مع متكلمين آخرين افتراضيين، أو واقعيين، ويفترض دائما وجود جهة تلفظ أخرى يتجه إليها المتكلم،

ويبني خطابه بالنسبة إليها (مثال الحوارات التلفزيونية)، ومن ثم يمثل الخطاب عملية استبدال من نصوص أخرى، ففي الفضاء الخطابي تتقاطع أقوال عدة، مأخوذة بدورها من خطابات أخرى.

ملاحظة : أكثر العلامات الخطابية المذكورة شيوعا هي البناء الاتصالي، والانسجام، والتناسق، والقصدية، غير أن علماء الخطاب، لا يعنون ضرورة تحقق هذه المعايير السبعة في كل خطاب، وإنما يتحقق الاكتمال الخطابي والنصي بوجودها، وأحيانا تتشكل الخطابات بأقل قدر منها.

مستويات تحليل الخطاب

من خلال المواصفات الماضية ندرك أن البنية الخطابية بنية معقدة، ذات أبعاد أفقية وتدرج هرمي، تحتاج إلى ذلك الخليط المتكامل، من علم النحو، وعلم الدلالة، وعلم التداولية.

ومهمة علم الخطاب تتمثل في وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية الخطابية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر المتعددة لأشكال التواصل باستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المختلفة

لذلك حدد لسانيو تحليل الخطاب ثلاثة مستويات تتم دراستها، هي:

المستوي اللغوي(التركيبي).

المستوى الموضوعي (الدلالي).

المستوى التداولى (التواصلي).

المستوى الأول التركيبي: ويدرس قواعد التحليل اللغوي التواضعية، ويركز هذا المستوى على البنية الشكلية للخطاب وعلى وجود مجموعة من القوانين الاختيارية التي تحكم الخطاب في المستويات الآتية:

المستوى الصوتي

المستوى الصرفي

المستوى النحوي

المستوى المعجمي

المستوى الثاني (الدلالي) :
في هذا المستوى نجد أن النحو الذي "يهتم بالمعنى سيظل ناقصاً، ولذلك نحس ضرورة التطابق الإحالي والإشاري وغيرهما في هذا المستوى الدلالي والهدف من ذلك أن يكون الترابط بين أجزاء النص من خلال علاقات دلالية ويشمل هذا المستوى دراسة الترتيب

الزمني وتطابق المحمولات أو تعالقها ثم تعالق العوالم الممكنة ثم المفهوم وصولا إلى البنية الكبرى، أو البنية الكلية، ثم علاقات الرؤية والتذكر والاسترجاع والبنية الدلالية المجردة ووصولاً إلى المستوى الثالث."

المستوى الثالث (التداولي) :

ويراد به دراسة وصفية للنص من واقع النظر إلى كونه مقبولاً تداولياً من خلال السياق الذي أنجز فيه، وهو مستوى العمل، يعني هذا أننا لن نرى القول/ الحديث /الجملة /النص فقط بإعتبار بنيته الداخلية والمعنى المسند إليه، بل نرى كل هذه الأشياء بإعتبار الفعل المنجز، فلم تعد دراسة النص كافية من خلال وصف بنيته النحوية أو الدلالية وإنما لابد من دراسته على مستوى الخطاب، أي الحدث الكلامي وما يتطلبه من قيود ومعايير، وهذا المستوى يعيد مناسبة المنطوقات، أو الجمل الصغرى إلى السياق التواصلي الذي تنجز فيه،

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
أطراف الخطاب
أ_المتكلم:
المفهوم، الكفاءة، قواعد التخاطب

المحاضرة السادسة

أطراف الخطاب
أ_المتكلم:

المفهوم، الكفاءة، قواعد التخاطب

إن عملية الكلام عملية معقدة للغاية، إلا أن حدوثها باستمرار، وبعفوية في حياة الإنسان جعله يراها من البساطة والسهولة بمكان، ولكننا حين نتمعن فيها نجدها معقدة، إذ تتطلب مؤهلات خاصة، وقدرة فائقة في القيام بعمليات عقلية وشعورية كثيرة لإنتاج الكلام، وفهمه على السواء، وتشترك في الخطاب أطراف متعددة، أهمها في علم تحليل الخطاب ثلاثة:

المتكلم.

السامع.

السياق.

وسنبدأ الكلام عن العنصر الأول وهو المتكلم، ثم نأتي للعنصرين الآخرين.

مفهوم المتكلم:

هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به، من خلال التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده استراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيا، والاستعداد له، بما في ذللك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقيق منفعته

الذاتية، بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مناسبة.

وبدون المتكلم لا يكون للغة فاعلية

وقبل أن نتكلم عن أهم ما جاء في هذا المفهوم، نشير إلى أن هناك مصطلحات عديدة تطلق على المتكلم، والتي هي عند بعض الدارسين مرادفة لمصطلح المتكلم، ولكنها عند البعض الآخر تختلف عنها على مستوى المفهوم، ومن هذه المصطلحات:

الباث: وهو في الأصل كل آلة تكون مصدر بث لموجات كهرومغناطيسية، قادرة على بعث بلاغات مشفرة، سواء تعلق الأمر بأصوات أو رسائل أو صور، أو أي نظام آخر من أنظمة العلامات (باثّ إذاعي، باثّ تلفزيوني)، وأصبح المصطلح يدل –بالتوسع تحت تأثير نظريات الإعلام – على الشخص الذي يبث بلاغات باتجاه متلق.

المخاطِب: هو الشخص الذي يحاور ويناقش ويحادث شخصا آخر، وهو بمعنى أدق يشير إلى الذي يمارس عملية تبادل الخطاب مع شخص آخر.

المتلفظ: ميز دارسو الخطاب بين المتكلم والمتلفظ، على اعتبار أن المتكلم هو صاحب الملفوظ في مقام ما، والقائل أو المتلفظ هو الطرف المسئول عن الموقف الوارد في ذلك الملفوظ، وهو الذي يعوض المتكلم الحقيقي في عملية التبليغ، ويسند إليه فعل القول، رغم أنه ليس له فيه إلا التبليغ، ونمثل له بقوله تعالى: "قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق" (الأعراف ٣٢)،

إذ الله سبحانه وتعالى هو المتكلم، وهو صاحب السؤال الإنكاري: من حرم زينة الله؟ والنبي صلى الله عليه وسلم هو المتلفظ بهذا السؤال موجها إياه للمشركين، والدليل على ذلك الفعل (قل).

ومن نماذجه أيضا مواضع الاستشهاد بأقوال الغير، إذ يُعد الناقل لها متلفظا، وليس متكلما، كذلك الخطابات التي يجريها الكاتب، أو القاص على لسان ما لا ينطق جمادا أو حيوانا، تدخل في هذا الباب، إذ يعد الكاتب أو القاص متكلما، والآخر الذي نقل عنه الخطاب متلفظا.

ويمكن تحديد وظائف المتكلم _من خلال المفهوم السابق_والتي تبدأ من قبل إصدار خطابه، وتستمر إلى ما بعد إنتاجه، بالآتي:

-ضبط المعنى، أو المعاني التي يريد تبليغها، ويرتبها ترتيبا مناسبا.

-اختيار القوالب اللفظية المناسبة لهذه المعاني.

-اعتبار شخصية السامع، وتكييف معطيات المعاني، ومعطيات اللغة معها.

-اعتبار طبيعة المقام، ومراعاته.

-التنسيق بين عناصر العملية التواصلية : ذاته، ذات السامع، المقام، الرسالة، القناة.

-متابعة تأثير خطابه على المتلقى.

كما يمكن تحديد شروط الخطاب الخاصة بالمتكلم، من المفهوم نفسه على النحو الآتي:

توافر الكفاءة عند المتكلم.

مراعاة المتكلم قواعد التخاطب.

تحديد المتكلم استراتيجيات للخطاب.

-١- الكفاءة اللسانية: هي القدرة على استعمال أنساق لسان معين، قصد بناء وتبيّن صحيحين لأشكال (صرف)، بالتزام قواعد توليفها (تركيبية)، وأخذ معاني الكلمات بعين الاعتبار (الدلالة)، واستعمالها في مقامها التواصلي المناسب (التداول).

ويمكن تصنيف الكفاءة اللسانية إلى:

-أ- الكفاءة اللغوية: ونعني بها معرفة المتكلم الضمنية لقواعد لغة التخاطب (بنية، وتركيبا، ودلالة) والتي تمكنه من انتاج عدد لا متناه من الجمل والتراكيب، وقدرته على الأداء السليم للخطاب.

-ب- الكفاءة الثقافية: وهي حصيلة المعارف والمعلومات التي يمتلكها المتكلم، مع مجموع القيم والمبادىء التي تعبر عنها هذه المعارف.

-ج- الكفاية التواصلية: وهي قدرة المتكلم مراعاة خصوصيات الموقف، والأعراف والعادات والظروف التي يجري ضمنها الخطاب، بحيث يجعل خطابه متطابقا مع السياق الموقفي، والاجتماعي، والنفسي، والثقافي، مع القدرة على التكيف مع المتغيرات السياقية.

-٢- مراعاة قواعد التخاطب: بما أن المتكلم ليس هو العنصر الوحيد في عملية الخطاب، وبما أنه المسئول الأول _ولكن ليس الوحيد _ عن إنجاح عملية التخاطب فأن اللسانيين أشاروا إلى مجموعة من القواعد لا بد أن يلتزم بها المتكلم حتى يحقق ما يهدف إليه ، ولعل أبرز المحاولات لضبط وتحديد هذه القواعد، ما ذكره (بول غرايس)، في مبدأ عام سماه (التعاون)، ومفاده: اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه في مرحلة حصولها، الغرضُ، أو المآلُ المسلم به من التخاطب المعقود.

وهناك مجموعة من القواعد تندرج تحت هذا المبدأ وهي:

مقولة الكمية.

مقولة الكيفية.

مقولة الإضافة.

مقولة الجهة.

مقولة الكمية: وتتعلق بكمية المعلومات التي يجب توفيرها، وتؤدى بالقاعدتين الآتيتين:

اجعل مشاركتك تفيد على قدر ما هو مطلوب، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية(الاختصار).

لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب(الإطناب).

مقولة الكيفية: وتتعلق بالقاعدة العامة: حاول أن تكون مشاركتك صادقة. وتتخصص هذه المقولة بقاعدتين هما:

لا تقل ما تعتقد أنه كاذب.

لا تقل ما يفتقر إلى دليل واضح.

مقولة الإضافة: وتنفرد بقاعدة واحدة وهي: اجعل مشاركتك ملائمة.

هذه المقولة المجملة تخفي ولا شك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق افتتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسبة، وتغيير موضوع المحادثة، وحسن التخلص..الخ.

مقولة الجهة: وهي لا تهتم كسائر القواعد بما هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله، أو النطق به، قاعدتها العامة: كن واضحا، وعنها تتفرع أربع قواعد هي:

احترز من الغموض.

احترز من الالتباس.

تحر الإيجاز.

تحر الترتيب.

هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به لكي يتم التخاطب بالطريقة المثلى من التعاون والعقلانية والفاعلية، بالطبع هذا لا يعني أن عليهم أن يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات، إذ قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال، بل المقصود من ذلك أنه حتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض خلافا للظاهر، أن المتكلم ما زال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق، حتى يتسنى له التوصل إلى معنى ما، فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس.

وتوضيحا لذلك، إليك المثال الآتي، وهو حوار بين أ و ب:

-أ- : أين سمير؟

-ب- : هناك سيارة مرسيدس حمراء أمام بيت علي.

فجواب (ب)، إذا أخذ حرفيا لا يفي بسؤال (أ)، فهو يبدو على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية، والإضافة، ولكن مع ذلك لا نعتبر أن (ب) بجوابه لا يعير اهتماما لما قاله (أ)، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون، بل تقديرا منا بأن هذا المبدأ ما زال ساريا، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان المرسيدس الحمراء، فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميرا يملك سيارة مرسيدس حمراء، اقتضى الجواب أن سميرا هو في بيت علي.

ملاحظة: قد يلجأ المتكلم إلى خرق مقولة أو أكثر من هذه المقولات، بهدف تحقيق هدف تواصلي محدد، مثل:

خرق مقولة الكمية، قول النابغة الجعدي:

لو أن الباخلين وأنت منهم= رأوك تعلموا منك المطالا

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
استراتجيات الخطاب عند المتكلم
المفهوم والحدود

المحاضرة السابعة

إستراتيجيات الخطاب
عند المتكلم
المفهوم والحدود

يسعى الخطاب من خلال وظيفته التعاملية والتفاعلية إلى التعبير عن مقاصد معينة، وتحقيق أهداف محددة، إذ يظهر في الخطاب مقاصد كثيرة، قد تبدو مباشرة من شكل الخطاب، وقد لا تبدو، وعندها يصبح الخطاب شكلا دالا يقود إلى المدلولات الثانوية خلفه، من خلال المعطيات السياقية، والعلامات التخاطبية، والافتراضات المسبقة، التي يدركها المرسل، أو يفترض وجودها، فيبني لغة خطابه عليها، كما يدركها المرسل إليه، ليستدل على المقاصد من خلالها.

ويتوخى المتكلم لتحقيق ذلك خططا معينة، هي التي يمكن أن نسميها إستراتجيات، وهي المسؤولة عن توصيل مقاصده، وجعل خطابه يتوافق مع السياق، وتعتمد هذه الإستراتجيات على مهارة المتكلم، وكفاءته التداولية.

مفهوم الإستراتيجية:

هي طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى تبليغ غايات معينة من أجل ضبط معلومة محددة والتحكم فيها، وعليه فإن المتكلم ملزم بتحليل السياق، وتحديد هدفه، والتخطيط لبلوغه.(يمكن تشبيه حالة المتكلم بحالة البحَّار)

وتعتمد إستراتجيات الخطاب على كفاءة المتكلم التداولية، وبما أن المتكلمين متفاوتون في هذه الكفاءة، فهم كذلك متفاوتون في اعتماد الإستراتجيات، على اعتبار أنها هي المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته، والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه.

ويتضح مما سبق أن إستراتجيات الخطاب نتاج مرحلتين متكاملتين هما:

المرحلة الذهنية.

- المرحلة الإنجازية.

معايير تصنيف الإستراتجيات

وانطلاقا من مفهوم الخطاب بأنه كل منطوق موجه به إلى الغير للتعبير عن قصد المتكلم، لتحقيق هدفه، أصبح لدينا ثلاثة مفاهيم مهمة، هي:

أن الخطاب يجري بين ذاتين.

وأنه يعبر به المتكلم عن مقصده.

وأنه يحقق هدفا.

من هنا كانت هذه المفاهيم الثلاثة هي معايير تحديد الإستراتجيات عند المرسل، والذي ينطلق من مجموعة من المسلمات يراعيها في اختيار استراتيجية معينة، وتفضيلها على غيرها، وهذه المسلمات هي:

مسلمة الحوارية: ومقتضاها أن لا كلام مفيد إلا بين اثنين، لكل منهما مقامه، مع وجود علاقة تربطهما. (قد تكون هناك علاقة مسبقة وقد لا تكون)

المسلمة الثانية تقول: إن علاقة الخطاب الرئيسة هي اللغة الطبيعية.

المسلمة الثالثة: إن انتاج الخطاب لا يكون إلا بقصد ما، ولهدف معين.

المسلمة الرابعة: إن الدلالة المباشرة هي دلالة الخطاب الرئيسة على قصد المتكلم.

ووفقا لهذه المسلمات يمكن للمتكلم أن يبلور الإستراتجيات في خطابه، اقتضاء لإحداها، إذ كل منها يسهم بدوره المستقل في تشكيل الخطاب ذاته، كما أن إحداها قد يؤثر في مسلمة أخرى، مما ينتج عنه اختيار إستراتيجية خطابية معينة.

ومما يتحكم في تصنيف الإستراتجيات في الخطاب ما يأتي:

محور العلاقة بين الطرفين.

شكل الخطاب.

١- محور العلاقة بين الطرفين:

تستقر العلاقة بين الطرفين على محورين هما: محور العلاقة المسبقة الأفقية، ومحور العلاقة المسبقة العمودية، وتظهر في أكثر من خصيصة، من ذلك: خصائص الدين (مسلم وغير مسلم)، خصائص الجنس (الذكورة والأنوثة)، خصائص السن (صغار، كبار، شيوخ)، خصائص المهنة (أساتذة، طلاب، ضباط، عمال)، خصائص العرق (عربي، غير عربي)

خصيصة الجنسية (سعودي، يمني، قطري، سوري...)، خصائص الحالة الاجتماعية، ومنها حالة المعيشة (عزاب، متزوجون، فقراء، أغنياء).

وتندرج العلاقات العاطفية تحت هذا الصنف (الود، الكره، القرب، البعد)، كما يندرج تحتها عدم وجود علاقة أصلا.

وكل ما سبق يسهم في توجيه المتكلم لاختيار إستراتيجية الخطاب المناسبة للسياق.

فعلى المتكلم مثلا أن يراعي مراتب المخاطبين في الكتابات الإدارية، ويستعمل الألقاب المناسبة للسلم الإداري للمتلقي.

القواعد التي تحكم هذا المحور

ويخضع محور العلاقة هذا، إلى مجموعة من المبادئ أكد عليها علماء تحليل الخطاب: وهي:

مبدأ التأدب: وتكون بمقادير مختلفة، حسب طبيعة العلاقة مع المتلقي، فمثلا نحن نتوقع من شخص لا نعرفه جيدا أن يقول لنا: هل يمكنني أن أستعير قطعة صغيرة من الورق؟، في حين قد يصوغها شخص آخر، وليكن الأخ الأكبر بطريقة مباشرة، مثل: أعطني قطعة من الورق.

ومن نماذجها في القرآن الكريم، ما ورد على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء ٨٠). ولم يقل أمرضني، وكان قبل ذلك ينسب الأشياء إلى الله تعالى: الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين.

وقول النبي ﷺ: ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا بلغه عن الرجل الشيء ، لم يقل : ما بَال فلان يقول ؟ ولكن يقول : ما بَال أقوام يقولون كذا وكذا !

ومن نماذجها كذلك هذا الحوار، الذي دار بين جارين، إذ وجد أحد الساكنين سيارة جاره أمام بيته، فقال له:

الساكن: أعان الله سكان هذا الحي، فالشوارع ضيقة، والمواقف قليلة.

الجار: أرجو أن لا يضيق صدرك بنا، سأبحث عن موقف لسيارتي.

الساكن: لا تحركها في الوقت الحالي، فأنا لا أقصد ذلك.

الجار: حتى لو قصدت، فالحق معك.

مبدأ التصديق: ويصوغها الدكتور طه عبد الرحمن كالآتي: لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك.

مبدأ التعاون: ليكن إسهامك في الخطاب بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار.

٢- محور شكل الخطاب:

يتجلى الخطاب في معظم حالاته في شكل لغوي، ولا شك أن هناك علاقة بين هذا الشكل اللغوي، وبين معناه، مما يلزم عنه الربط بين قصد المتكلم وشكل اللغة الدالة عليه، وللمتكلم إستراتجيتان في التعبيرعن قصده، هما:

الإستراتيجية الأولى: إجراء الخطاب على أصله (المعنى الحرفي) : كقول الضابط مخاطبا الجندي: انقل هذا العتاد إلى المستودع. (أمر)

الإستراتيجية الثانية: إجراء الخطاب مع العدول عن الأصل: كقول الجندي للضابط: امنحني إجازة.(رجاء)

ملاحظتان:

من الخطابات ما يحتمل المعنى الحرفي، والمعنى غير الحرفي، والسياق هو الذي يحدد المقصود، كجملة إن السماء تمطر(إخبار، أو أمر، أو، نهي...).

- بعض الخطابات لا تتحمل إلا المعنى الحرفي، مثل العبارة الآتية المكتوبة على بطاقة الدعوى: ممنوع اصطحاب الأطفال.

يستطيع المتكلم استغلال آليات كثيرة للعدول بخطابه عن الظاهر، ومن مظاهر هذا العدول:

أ- استغلال اختلاف مرجع الإشاريات، على اعتبار أن لكل خطاب مدلولا ومرجعا يحيل عليه المتكلم، وهذا ما يساعد على تأويل الخطاب، ومعرفة القصد منه، إلا أن هناك بعض الدوال التي لا تختص بمرجع معين ثابت، ومنها الإشاريات، وهي الخصيصة التي يستغلها المتكلم في بعض خطاباته، كما حدث في السياق التالي بين

الواثق والحارث بن مسكين، حيث أراد الواثق أن يتأكد من كون الحارث يقول بخلق القرآن والحارث على غير ذلك الرأي، فلما سأله الواثق، أجابه: أشهد أن التوراة، والإنجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة ومدّ أصابعه الأربعة.

ب-التنغيم: وهو من الوسائل التي تمكن المتكلم من تبليغ مقصوده، ويعرفه جونز بقوله: التنغيم يعرّف بأنه التغيرات التي تحدث في درجة نغمة الصوت في الكلام والحديث المتواصل، هذا الاختلاف في النغمة يحدث نتيجة لتذبذب الأوتار الصوتية، وللتنغيم أثر كبير على توجيه المعني، بعيدا حتى عن دلالة اللفظ، ومنه الصاعد والهابط، ومن نماذجه الحوار الآتي:

نموذج بين متحاورين لا يتفقان في وجهة نظريهما حول دور البلدان العربية في الصراع العربي الإسرائيلي، إذ يدافع كل منهما عن موقف بلده، فيخاطب أحدهما الآخر:

الله يحميك، ويحمي أولادك، ويحمي بلدك!

إنه يهدد...

نعم أردد الله يحيك ، ويحمي أولادك، ويحمي بلدك!

لقد تغيرت لغته.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن أنواع الإستراتجيات

المحاضرة الثامنة

أنواع الإستراتجيات

ذكرنا في المحاضرة الماضية أن الإستراتجيات هي مجموعة العمليات التي يهدف من خلالها المتكلم إلى تبليغ غايات معينة من أجل ضبط معلومة محددة والتحكم فيها، ونقلها إلى المتلقي بقصد التأثير فيه، وبما أن ظروف الخطاب وأطرافه تتغير باستمرار، فإن المتكلم يجد نفسه مجبرا على تغيير إستراتيجية تواصله، تبعا لتغير المتلقي، أو ظروف المقام، وما إلى ذلك.

ويمكن اعتماد تقسيم هذه الإستراتجيات باعتبار النقطتين الآتيتين:

طبيعة العلاقة بين المتكلم والمتلقي (هل هي موجودة مسبقا أو لا، وما هي درجتها من الحميمية والسطحية).

سلطة أطراف الخطاب: أي مكانة كل طرف من الآخر في السلم التراتبي، علوا وانحدارا وتساويا.

فتكون أنواع الإستراتجيات كالآتي:

الإستراتيجية التضامنية.

الإستراتيجية التوجيهية.

والإستراتيجية التلميحية.

١- الإستراتيجية التضامنية:

وهي الإستراتيجية التي يحاول المتكلم أن يجسد بها درجة علاقته بالمتلقي ونوعها، ويعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها، وذلك بإزالة معالم الفروق بينهما (محاولة التقرب من المرسل إليه، ومرحلة التأسيس في حالة كونها غائبة – ويغلب عليها في هذا المستوى مبدأ التأدب-)

عناصرها: وتعتمد هذه الإستراتجية على:

مدى التشابه والاختلاف الاجتماعي.

مدى تكرار الاتصال.

مدى امتداد المعرفة الشخصية.

درجة التآلف، أو كيفية معرفة طرفي الخطاب لكل منها.

مدى الشعور بتطابق المزاج أو الهدف أو التفكير.

الأثر (الإيجابي\السلبي).

ومن أمثلتها : مدير شركة يتبنى الخطاب الرسمي مع الموظيفين لكونه جديدا على المؤسسة، ثم يتغير اتجاه الخطاب بعد تعرفه عليهم، كأن يناديهم بأسمائهم، أو يجالسهم خارج العمل.

٢- الإستراتيجية التوجيهية:

وهي التي تعتمد الضغط على المتلقي لتوجيهه لفعل مستقبلي معين، وهي ناتجة عن علاقة سلطوية بين طرفي الخطاب، وكثيرا ما تحيل هذه الاستراتيجية على ضمير المتكلم لتبيين سلطته:

سوف أعاقب كل المخالفين للنظام، أكثر حدة من: سوف يعاقب كل المخالفين للنظام.

مبررات استعمال هذه الاستراتيجية

هناك مسوغات كثيرة تلجىء المتكلم إلى اعتماد هذه الإستراتيجية من مثل:

عدم التشابه في عدد من السمات، كالسمة المعرفية (أستاذ\طالب، خاصة المبتدىء الذي يحتاج إلى توجيهه أكثر من ملاطفته، أو المقصِّر..).

عدم وجود تكرار في الاتصال بين طرفي الخطاب، إذ ينحصر في اللقاءات الرسمية.

الشعور بالتفاوت في مستوى التفكير بين الطرفين، إذ قد يستعمل المتكلم الإستراتيجية التضامنية بالرغم من سلطته، فيحملها المتلقى على أنها ضعف، فيضطر المرسل إلى استعمال التوجيه بدءا، لأن ذلك أسلم إستراتيجية، وأضمنها نتيجة (العلاقات العسكرية).

تصحيح العلاقة بين الطرفين غير المتكافئين في المرتبة وإعادتها إلى سيرتها الأولى.

رغبة المتكلم في الاستعلاء، أو الارتفاع بمنزلته الذاتية، ويتضح هذا في خطاب المظلوم الذي يطلب من القاضي، أو من الموظف أن يمنحه حقوقه، بقوله: أنصفني، وأعرني سمعك لتنصت لدعواي، فإن لم تفعل فمن تريد أن يفعل؟ (ولكنه لا يمتلك السلطة لا بعد القول ولا قبله)

إصرار المتكلم على تنفيذ قصده عند إنجاز الفعل، وحصول أقصى مقتضى خطابه، والتأكيد على أنه لا يتوانى عن تعقب خطابه والتمسك بمدلوله، فمدلوله الحرفي هو الفيصل عند اللبس في ذهن المتلقي، وبالتالي فإن استعمال هذه الاستراتيجية يعد احترازا من سوء الفهم والتأويل الخاطىء.(الدلالة على الالزام لا الإباحة والتخيير)،

حصول تحد واضح للمرسل أو لتعليماته، أو الإساءة إليه رغم سلطته، كأن يتجاوز موظف رئيسه المباشر، بأمر زملائه بعدم قراءة الجرائد في المكاتب، مما يدعو رئيسه إلى المبادرة بإبراز حقه السلطوي في خطابه، مستعملا الإستراتيجية التوجيهية ليجعل المرسل إليه يتراجع عما قاله.

مناسبة السياق التفاعلي لاستعمال هذا النوع من الإستراتجيات، كما هو الحال مثلا بين طبيب ومريض، فلا يراعى كون المريض مديرا أو وزيرا، أو غير ذلك مما يتميز به المرسل إليه...كما يفعل طبيب الأسنان في أوامره: افتح فمك _ أمل رأسك قليلا _ لا تتحرك.

ولقد درس العلماء هذا النوع من الاستراتجيات في تخصصات مختلفة، فعلماء البلاغة درسوها حين تعرضوا إلى تحليل الأساليب الطلبية، كما درسها علماء أصول الفقه في المباحث اللغويه التمهيدية عندما ركزوا على دلالات الأمر والنهي في الخطاب الشرعي، كما درستها لسانيات تحليل الخطاب حديثا في كيفيات التلفظ، ومنهم: جرايس، وسيرل، وليفنسون، وباخ.

تصنيف باخ للأفعال التوجيهية

لقد صنف العالم اللساني باخ أفعال التوجيه إلى عدة أصناف، هي:

الطلبات، ومنها: السؤال، والتوسل، والتضرع، والإلحاح، والدعوة، والطلب، والحث، والابتهال، والحجاج.

المتطلبات، ومن أشكالها: العرض، والتكليف، والأوامر السلطوية، المنع، التعليم.

التحريمات، ومنها: التحريم، والتقييد.

الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التوجيهية

لهذه الإستراتيجية عدة وسائل لغوية منها:

الأمر بأدواته المختلفة،

النهي.

الاستفهام،

التحذير،

الإغراء،

ألفاظ المعجم.

ذكر العواقب.

التوجيه المركب.

الأمر: ويتحقق بصور عدة: منها صيغته الصرفية (افعل)، واسم فعل الأمر (صه)، الفعل المضارع المسبوق باللام (لينفق)، المصدر النائب عن الفعل (رفقا بالحيوان)، اسم الأمر (أنتم مأمورون بكذا)، شبه الجملة (إلى المسجد، إليك عني)، ألفاظ مخصوصة للوجوب (يجب، ينبغي، لابد..)، صيغ الإخبار من متكلم ذي سلطة (قول الأستاذ: الطلاب الناجحون ينتظرون هنا).

النهي: وله صيغة أصلية وهي الفعل المضارع المسبوق بـ(لا) الناهية: لا تسرف في الماء عند الوضوء، كما أن هناك ألفاظ تدل على النهي عند اطلاقها مثل مادة: حرم، حظر، نهي، ومشتقاتها: هذه المنطقة محظورة، هذه المواد محرم لبسها، يمنع الجلوس في هذا المكان، وكذلك الأفعال الدالة على الترك، مثل: دع عنك المزاح، كفّ عن الحديث في هذا الأمر.

الاستفهام: ويقصد به في الاستراتيجية التوجيهية ذلك السؤال الذي يوظفه المتكلم للتعبير عن قصده كأداة للإستراتيجية غير المباشرة، وهو السؤال الذي لا يقتضي التلفظُ به إجابة صريحة: هل تستطيع أن تنادي لي المسئول (لا تنتظر الإجابة بلا أو نعم).

ويعبر عنه بصور مختلفة منها: استعمال أدوات الاستفهام، والألفاظ الدالة على الاستخبار، مثل: أتخبرني عن كذا، أتعلمني عند انتهاء الوقت المخصص لي في المحاضرة، الفعل المضارع ذي التنغيم الدال على الاستفهام مثل: فهمت؟.

التحذير: وذلك من خلال استعمال أدوات معينة، يقصد بها النصح الضمني للمخاطَب، وله أربع صور:

صورة تكتفي بذكر المحذر منه: النارَ، السيارةَ.

صورة تشتمل على ذكر اسم ظاهر مختوم بكاف خطاب: يدَك، أو يدك يدك.

صورة تشتمل على ذكر اسم ظاهر مختوم بكاف خطاب معطوف عليه المحذَّر منه: يدَك والسكين.

صورة تشتمل على ذكر المحذر ضميرا للمخاطب هو إياك وفروعه، وبعده المحذر منه: إياك الكسل.

ألفاظ المعجم، مثل: أوصيكم، أحثكم.

ذكر العواقب: وهي أوامر غير صريحة، كقول الأب لولده: مخالطة رفقاء السوء شر عظيم، أو في العبارات الاشهارية مثل: هذا المعجون يريح أسنانك.

التوجيه المركب: وهو أن يجمع المتكلم في سياق واحد أسلوبين متضادين، كاستعمال النهي والأمر المضاد له شكلا، ولكنهما ليسا كذلك، إذ يعضد أحدهما الآخر، ومثاله كتاب سيدنا أبي بكر لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما، جاء فيه: ...فإني قد وليتُ خلدا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع، وأطع أمره..

٣- الإستراتيجية التلميحية:

هي الإستراتيجية التي يعبر بها المتكلم عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي، مستثمرا في ذلك عناصر السياق.

مبررات استعمال هذه الاستراتيجية

يختار المتكلم الإستراتيجية التلميحية استجابة لدواع سياقية، تجعله يعدل عن استعمال الخطاب المباشر، ويمكن الإشارة إلى أهم المبررات (المسوغات) التي ترجح استعمال المتكلم لهذه الإستراتيجية، وهي كما يأتي:

- التأدب في الخطاب: وهو من أهم الأسباب، إذ يراعي المتكلم الأبعاد الشرعية، والأبعاد الاجتماعية، والأبعاد الذاتية، وهذا التأدب يكون مع الغير باحترامه، فلا يذكر ما يقلل من شأنه أو يحط من قدره، ومع الذات بأن يتنزه عن القول الفاحش، أو ذكر ما يستغرب منه، والمحافظة على صورته المعهودة، ومع مكان الخطاب فينزهه عن ذكر ما لا يليق بحرمته، كالمجلس، والمسجد.

إعلاء المتكلم لذاته على حساب غيره، بالتعريض بنقائصهم، واحتقارهم.

رغبة المتكلم أحيانا في التخلص والتنصل من مسئولية الخطاب،كما يقول (براون وليفنسون)، وذلك بجعل الخطاب يحتمل أكثر من تأويل ، ويكون التخلص غالبا عند إدارة الأزمات، أو وجود توتر في العلاقات بين أطراف الخطاب، وقد يتجاوز مستوى التعامل بين الأفراد إلى المؤسسات والدول. من نماذجه: التعريض بطلب أو إعطاء الرشوة، يا فلان ساعدني لإنهاء هذه المعاملة، وسوف أطيب خاطرك.

الاستجابة للخوف، لئلا يتخذ المرسل إليه الخطاب دليلا على المتكلم.

العدول عن محاولة إكراه المتلقي، أو إحراجه، كإنجاز فعل قد يكون غير راغب في إنجازه، بمنحه فرصة للرفض والمناورة باللغة، فلا يعمد المتكلم إلى إحراجه (يكثر ذلك في خطابات النصح).

الاستغناء عن نتائج عدد من الخطابات والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد، ليؤدي معنيين، هما المعنى الحرفي، والمعنى المستلزم في الآن نفسه، مثال قول الأستاذ للطلاب: يتم تسلم الواجبات يوم السبت، أي أنها لا تسلم في باقي الأيام.

ملاحظة:

تمت دراسة هذه الإستراتيجية عند العلماء العرب _خاصة البلاغيين منهم- في أبواب كثيرة مثل : الكناية، والتعريض، والمجاز، ومن أشهرهم عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، وفي الدراسات الغربيةالحديثة إعتنى بها لسانيون كثر من أبرزهم: سبيربر، وولسون، وجرايس.

الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التلميحية

هناك وسائل لغوية يستعملها المتكلم عند التلفظ بالخطاب التلميحي، أهمها:

ألفاظ الكنايات والروابط والظروف الإنجازية، ومنها (كم) الخبرية، كما في النماذج الآتية:

خطاب الطبيب مع الممرض: كم خطأ أخطأته وعفونا عن زلاتك، فاستفد من ذلك بتعديل سلوكك. (كثرة الأخطاء)

قابلت المسؤول وقلت له كذا وكذا. (الرغبة في إبقاء الأمر سرا)

أنما ينجح الطالب المجتهد (يقولها أب لابنه).

إليكم إعادة لأبرز عناوين النشرة (انتهت النشرة)

التنغيم: هو ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام .
ويقصد به التنويع في اداء الخطاب بحسب المقام المقُول فيه . فكما إن لكل مقام خطابا، فكذلك لكل خطاب طريقةٌ في ادائه تناسب المقام الذي اقتضاه . فالتهنئة غير الرثاء ، والأمر غير النهي ، سطوةٌ وردعاً غيرهما شفقةً ، وهما غير التانيب والتوبيخ ، والتساؤل والاستفهام غير النفي وهكذا، وللنغمة أربعة مستويات وهي:
أ- النغمة المنخفضة: وهي أدنى النغمات. وهي ما نختم به الجملة الإخبارية عادة، والجملة الاستفهامية، التي لا تجاب بنعم أو لا.

ب- النغمة العادية: وهي التي نبدأ الكلام بها، ويستمر الكلام على مستواها من غير (انفعال).
ج- النغمة العالية: وتأتي قبل نهاية الكلام متبوعة بنغمة منخفضة أو عالية مثلها.
د- النغمة فوق العالية: التي تأتي مع الانفعال أو التعجب أو

الأمر.

كأن يقول شخص لمن عنده: أليس وراءكم عمل؟ (الغرض المداعبة، أو الطرد...)

إخراج الأساليب عن مدلولاتها الحقيقية، كدلالة الاستفهام على الأمر، ومثاله قوله تعالى: (أتخشونهم)، وكدلالة الخبر على الإنشاء، مثل: توضع الجوالات على المكتب (وقت الإختبار)، هل تستطيع أن تناولني الملح؟ (في المطعم).

الملمَّحات: وفيها يورد المتكلم الخطاب بعيدا عن تبنِّيه، مثل:

إن لم أكن واهما فإن فيينا هي عاصمة النمسا.

يقولون أن الجو سينقلب إلى البرودة.

سمعت أن الأسعار ارتفعت.

التعبير الاصطلاحي: وهو نمط تعبيري خاص بلغة ما، يتميز بالثبات، ويتكون من كلمة أو أكثر، تحولت عن معناها الحرفي، إلى معنى مغاير، اصطلحت عليه الجماعة اللغوية، كالأمثلة الآتية:

كتب يزيدُ بنُ الوليد إلى مَروان بن محمد بالجزيرة، وبَلغه عنه تلكّأ في بَيعته: أما بعد. فإني أراك تُقدّم رجلاً وتُؤخِّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئتَ، والسلام.

فلان يضرب كفا بكف.

أنت ذو وجهين.

التهكم: وهو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب. كقولنا للجبان: ما أشبهه بالأسد، أو قولنا للبخيل: إنه حاتمي الطبع.

التعريض: وهو المعنى الحاصل عند التلفظ به، كردك على من سألك: هل أعجبك الكتاب؟ فتقول: غلافه جميل، وورقه صقيل.

ملاحظة: يفضل المتكلم استعمال التعريض في خطابه متى كان واثقا من أن المرسل إليه سوف يفهم قصده

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة

عن

القصد وعلاقته بلغة الخطاب

المحاضرة التاسعة

القصد
وعلاقته بلغة الخطاب

يعد القصد عنصرا من العناصر الرئيسة في الخطاب اللغوي، إذ يتحكم تحديد الهدف من الخطاب في اختيار طبيعة اللغة وطريقة الأداء، بمعنى أنه يتحكم في شكله ومدته وطريقة إنجازه، فحين يكون هدفك من خطابك ترغيب المخاطَب في شيء يكون خطابك مغايرا تماما لحالة لو أنك أردت نهره أو توبيخه، ومدار الأمر في أن الأساس ما يريده المتكلم لا ما تريده اللغة، ومن ثم فلا بد على المتكلم أن يجعل قصده حاضرا في خطابه.

القصد لغة:

جاء القصد في كتب اللغة لمعان متعددة، ومما جاء في كتب اللغة قولهم:

"القصد: الاعتماد والأم، تقول: قصده، وقصد له، وإليه بمعنى يقصِده – بالكسر". وقال ابن منظور: "القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصداً فهو قاصد".

ويقول ابن فارس:"(قصد)، القاف، والصاد، والدال أصول ثلاثة يدل أحدهما على إتيان شيء، والآخر اكتناز في الشيء، والأصل قصدته قصداً مقصداً"

ويقول ابن سيده: " القَصْدُ: استقامة الطريق، وقوله تعالى: {وعلى الله قصد السبيل} أي أن على الله تبيين الطريق المستقيم إليه بالحجج والبراهين، والقصد :الاعتماد والأمُّ، قصَده يقصده قصداً، وقصد له وأقصدني إليه الأمر وهو قصدُك، وقصدَك أي اتجاهك".

وملخص القول من كلام اللغويين: أن القصد استقامة الطريق، والقصد الاعتماد والأَم.

القصد اصطلاحا:

القصد نوع من الإرادة تبلغ في قوتها درجة الاعتزام، والإرادة لا تكون عزماً ما لم تكن جازمة، والمتأمل في كلام العلماء يلحظ أنهم يذهبون إلى أن القصد أعلى درجة من العزم، فالعزم عندهم قد يكون على فعل في المستقبل، وهذا العزم قد يضعف أو يحول، أمَّا القصد عندهم فلا يكون إلا إذا كانت الإرادة جازمة مقارنة للفعل أو قريبة من المقارنة، ولهذا فإن العلماء يقولون: لا فرق بين النية والقصد، وكثير من العلماء يرى أن النية لابد أن تقارن المنوي.

وذهب جمع من العلماء إلى تعريف النية بمدلولها اللغوي، رابطين إياها بالقصد فمن هؤلاء النووي– رحمه الله – قال: "النية هي القصد إلى الشيء، والعزيمة على فعله، ومنه قول الجاهلية: نواك الله بحفظه، أي قصدك به".

ومنهم القرافي – رحمه الله – قال:"هي قصد الإنسان بقلبه ما يريده بفعله".

وقال الخطابي – رحمه الله –:"النية قصدك الشيء بقلبك، وتحري الطلب منك له وقيل: عزيمة القلب".

ولهذا فإن جمعا من علماء أصول الفقه –وهو العلم الذي درس فيه موضوع القصد دراسة علمية غاية في الدقة والإبداع -يقولون: لا فرق بين النية والقصد.

والقصد في اصطلاح الفقهاء هو : العزم المتجه نحو إنشاء فعل.

وعليه يمكن تعريف القصد بأنه الغاية من الخطاب ، والأهداف التي يضعها المتكلم عند كل جزء من أجزاء هذا خطابه"

فإنجاز الأفعال اللغويه –حسب هوسرل- على نحو مخصوص يدلّ على أنّ ما اتّصل بالوعي منها هو غرض تجب نسبته إلى الأنا. وينبغي توحيد الأفعال المقوّمة للألفاظ، والأفعال المقوّمة للمعاني وفق نظام الإحالة على المقاصد، أي أن تتّجه الأنا إلى المحتويات المقصدية بوصفها القاعدة القصوى لكلّ إنجاز عبر اللغة.

المقصدية في التواصل اللغوي

ميّز «غرايس» الدلالة المقصدية عن الحالات غير المقصدية، موضّحا أنّ كلّ حدث، سواء أكان لغويًا أم غير لغوي، إما أن يكون محتويا على نية الدلالة أو لا يكون كذلك، فتراكم الغمام يدلّ على أنّ السماء قد تمطر، وهو حدث له دلالة ليس وراءها قصد. أما قولنا لأحد الناس: «اقرأ»، أو: «أغلق الباب»، فهو قول ذو دلالة مقصدية واضحة. لكنّ المرسل قد يخفي قصده كي يؤوّل المستقبل مقصدا ضمنيا ليس هو مقصده الحقيقي، مثل تقطيب الجبين للإيهام بأنّه مشغول، والحال أنه ليس كذلك. وتفترض عملية التواصل المقصدية وجود طرفين إنسانيين: مرسل ومتلقّ.

علاقة لغة الخطاب بالقصد:

ويفصل ابن القيم الجوزية رحمه الله الكلام في علاقة الملفوظ بالقصد، بقوله: الألفاظ بالنسبة لمقاصد المتكلمين ونياتهم وإرادتهم لمعانيها ثلاثة أقسام:

أن تظهر مطابقة القصد للفظ، وللظهور مراتب تنتهي إلى اليقين والقطع بمراد المتكلم بحسب الكلام في نفسه، وما يقترن به من القرائن الحالية واللفظية وحال المتكلم به وغير ذلك.

كَمَا إِذَا سَمِعَ الْعَاقِلُ وَالْعَارِفُ بِاللُّغَةِ قَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهَا» فَإِنَّهَا لَا يَسْتَرِيبُ وَلَا يَشُكُّ فِي مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ وَأَنَّهُ رُؤْيَةُ الْبَصَرِ حَقِيقَةً، وَلَيْسَ فِي الْمُمْكِنِ عِبَارَةٌ أَوْضَحُ وَلَا أَنَصُّ مِنْ هَذِهِ. وَلَوْ اُقْتُرِحَ عَلَى أَبْلَغِ النَّاسِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِعِبَارَةٍ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى عِبَارَةٍ أَوْضَحَ وَلَا أَنَصَّ مِنْ هَذِهِ، وَعَامَّةُ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ فَإِنَّهُ مُسْتَوْلٍ عَلَى الْأَمَدِ الْأَقْصَى مِنْ الْبَيَانِ.

ما يظهر بأن المتكلم لم يرد معناه، وقد ينتهي هذا الظهور إلى حد اليقين، بحيث لا يشك السامع فيه، وهذا القسم نوعان:

أحدهما: لا يكون مريدا لمقتضاه ولا لغيره كالمكره والنائم والمجنون ومن اشتد به الغضب والسكران.

والثاني: أن يكون مريدا لمعنى يخالفه كالمعرِّض والموري، والملغِز والمتأول، والمنفعل. .(كقول الأعرابي: اللهم أنت عبدي وأنا ربك)

ما هو ظاهر في معناه ويحتمل إرادة المتكلم له، ويحتمل إرادته غيره، ولا دلالة على واحد من الأمرين، واللفظ دال على المعنى الموضوع له، وقد أتى به اختيارا.(كعدم ترجح الأمر والإباحة في خطاب ما)

تصنيف الأفعال اللغوية باعتبار الهدف (القصد):

صنف (سيرل) الأفعال اللغوية بحسب الأهداف التي يرمي المتكلم تحقيقها، فبلغت خمسة أصناف، يحقق المتكلم بكل واحد منها هدفا معينا، وهي كما يأتي:

الأفعال التأكيدية أو التقريرية: والهدف منها تعهد المتكلم _بدرجات مختلفة_ بأن شيئا ما هو واقعة حقيقية، وتعهده كذلك بصدق قضية ما.

الأفعال التوجيهية: وهدفها جعل المرسل إليه يفعل شيئا ما، ويحاول المرسل تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة تتراوح بين اللين، وذلك بالإغراء أو الإقتراح، أو النصح، وبين العنف والشدة، وذلك بالإصرار على فعل الشيء.

الأفعال الالتزامية: وهدفها التزام المتكلم بدرجات متنوعة بأفعال في المستقبل، وهي مبنية على شرط الإخلاص

الأفعال التعبيرية: وهدفها التعبير عن حالة نفسية محددة، بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب على تلك الأمور المحددة.

الأفعال التصريحية: وهدفها جعل العالم يطابق الخطاب، والخطاب يطابق العالم.

الطرق اللغوية لتحقيق القصد:

-هناك طرائق لغوية كثيرة ومتعددة لتحقيق القصد، وتبليغه المتلقي، منها:

تقديم ما حقه التأخير:

بقصد (الاهتمام) بالمقدَّم، وهذا كثير في القرآن، منه قوله تعالى: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين} (البقرة:٤٣)، فبدأ بالأمر بالصلاة؛ لأنها أهم العبادات. ومنه قوله سبحانه: {وبالوالدين إحسانا} (البقرة:٨٣)، قدم الجار والمجرور {وبالوالدين} على المصدر {إحسانا}؛ للاهتمام به.

التقديم بقصد (التبرك)، مثاله قوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل} (الأنفال:٤١). ذهب أكثر المفسرين إلى أن قوله: {لله} افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإضافة هذا المال إلى الله لشرفه، وليس المراد منه أن سهماً من الغنيمة لله منفرداً، فإن الدنيا والآخرة كلها لله سبحانه.

التقديم بقصد (التعظيم)، كقوله سبحانه: {ومن يطع الله ورسوله} (النساء:١٣)، فتقديم لفظ الجلالة في هذه الآية ونحوها على لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم؛ تعظيماً له سبحانه، مع أن طاعته صلى الله عليه وسلم من طاعته سبحانه وتعالى.

التقديم بقصد (التشريف)، كتقديم الحر على العبد في قوله تعالى: {الحر بالحر والعبد بالعبد} (البقرة:١٧٨)، فإن الحر أشرف من العبد، فاقتضى تقديمه. وتقديم الحي على الميت، كقوله سبحانه: {وما يستوي الأحياء ولا الأموات} (فاطر:٢٢)، فإن الحي أشرف من الميت، فاقتضى الأمر تقديمه.

التنكير : ويكون لمقاصد كثيرة منها:

١ ـ اذا لم يعلم المتكلم بجهة من جهات التعريف، حقيقة أو ادعاءاً، كقولك: (جاء رجل يسأل عنك).

٢ ـ إخفاء الامر كقولنا: (اتّهمك رجل) نخفي اسمه حتى لايكون شغباً.

٣ ـ قصد الافراد، قال تعالى: (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) أي: رجل واحد

٤ ـ قصد النوعيّة، نحو: (لكل داء دواء).

٥ ـ التعظيم، قال تعالى: (وعلى أبصارهم غشاوة)أي: غشاوة عظيمة.

٦ ـ التحقير، قال تعالى: (ولئن مسّتهم نفحة من عذاب ربّك)

٧ ـ التكثير، قال تعالى: (وإن يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك)

٨ ـ التقليل، قال تعالى: (ورضوان من الله أكبر) أي: رضوان قليل أكبر من نعيم الجنّة ـ على بعض التفاسير.

التعريف: ومن مقاصده:

الدلالة على الكمال كما في سورة الإخلاص حيث عرف لفظة (الصمد) إذ لها سر بلاغي يفوت إذا جاءت هذه الكلمة منكرة ، وأل تأتي في كلام العرب ولها استعمالات عدة فتأتي أحياناً للتعريف ، وهذا هو المشهور الغالب في استعمالها،

وتأتي عوضاً عن المضاف إليه المحذوف مثل : (الكتاب) أي كتاب الله ، و (المسجد) المسجد الحرام، و(الرسول) أي رسول الله .
وتأتي (أل) تفيد الكمال مثل : (ذلك الكتاب)أي هذا الكتاب الكامل الذي يستحق وصف الكتاب وكأن غيره بالنسبة له ينزل منزلة العدم بالنسبة للوجود ، وما معنا في هذه الآية الكريمة أتى على هذا الاستعمال .

ملاحظة:

٢-قد تتعدد المقاصد في الملفوظ الواحد،

ومثاله: قول مذيع في حصة تلفزيونية لمتصل ما: أنت معنا على الهواء مباشرة.

فمن الممكن أن يكون المقصود:

اضبط أعصابك.

أحفظ لسانك؟

لا تتجاوز حدود اللباقة، وأدب الحوار.

تفضل بالكلام.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
الخطاب الحِجَاجي (الإقناعي)
وآلياته اللغوية

المحاضرة العاشرة

الخطاب الحِجَاجي (الإقناعي)
وآلياته اللغوية

لقد سبقت الإشارة إلى أن صاحب الخطاب عليه قبل إنتاج خطابه أن يحدد هدفه الذي يريد أن يبلغه للمتلقي، والغرض الأول والأخير عند المتكلم هو التأثير على المتلقي، وجعله يقبل ويسلم بفحوى الخطاب، بمعنى أن لا يكرهه على ذلك، بل يتبع معه طريقة الإقناع، ولا يحقق المتكلم ذلك إلا إذا استعان في خطابه بآليات تحمل المتلقي على الاستجابة بالكيفية التي قصدها.

وعليه سنركز في هذه المحاضرة على عملية الإقناع، والتي لا تتحقق إلا بالحجة والدليل، ولذلك كثيرا ما يربط علماء تحليل الخطاب بين الإقناع والحجاج.

فيقولون خطاب إقناعي، أو خطاب حِجَاجِي، وهما بمعنى واحد، وهذا الذي سنعتمده في العناصر القادمة.

مفهوم الحجاج لغة:

الحجاج لغة:

من حاجَّ، قال ابن منظور في لسان العرب:حاجته أُحاجه، حجاجا، ومُحاجة،أي غلبته بالحجج...والحجة أدليت بها...وحاجه محاجة وحِجاجا: نازعه الحجة...والحجة:الدليل والبرهان...وهو رجل محاجِج: جَدِل، والجدل هو مقابلة الحجة الحجة.

الحجاج اصطلاحا:

يعرفه طه عبد الرحمن بأنه: كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها.

إن غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وُفِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها عند المتلقي، بشكل يبعثه على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامع مهيأ للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة.

مسوغات استعمال وسيلة الإقناع:

هناك عدد من المبررات، والدواعي التي ترجح أو تفرض استعمال الإقناع دون غيره، نذكر منها:

إن تأثير الخطاب الإقناعي في المتلقي أقوى، ونتائجه أثبت وأبقى وأدوم، لأنه ينبع من حصول الاقتناع عند المرسل إليه غالبا، لا يشوبه فرض ولا قوة.(على اعتبار أن هناك وسائل أخرى يحصل بها الاقناع والتأثير مثل التلويح بالتهديد، والابتزاز والوعد.

إنه يضمن استمرارية الخطاب وتناميه، عن طريق استعمال الحجاج، لأن من شروط التداول اللغوي شرط الاقناعية.

المكانة التي أصبحت تحتلها آلية الاقناع، وتقدمها على الآليات الأخرى، خاصة في العصر الحديث، حتى عند المتكلم الذي يملك سلطة وقوة تمكنه من استعمال آلية الالزام، لأن المرسل إليه قد تغيرت ثقافته وإدراكه لكثير من الأمور، ولم يعد مستعدا إلا إلى طريق الدليل والحجة والاقناع.

ابداع السلطة، فالاقناع عند المتكلم سلطة في خطابه، ولكنها سلطة مقبولة، إذا استطاعت أن تقنع المتلقي (وإن كان المتكلم أدنى من المتلقي).

شمولية هذا النوع من الخطاب (الخطاب الاقناعي)، إذ يمارس على جميع الأصعدة، يمارسها الحاكم، والفلاح، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، كل ذلك بوعي منهم، وهذا يعزز انتماء آلية الاقناع إلى الكفاءة التداولية عند الإنسان السوي بوصفها دليلا على مهاراته الخِطابية.

ما يحققه من نتائج تربوية، إذ يستعمل كثيرا في الدعوة إلى الأفكار والمذاهب (كما فعل النبي ﷺ عند اقناع الأعرابي الذي طلب الرخصة لارتكاب الزنا)، ويتجاوز الأمر إلى البيت والمدرسة.

استباق عدم تسليم المرسل إليه بنتائج المرسل أو دعواه.

عدم الاتفاق حول قيمة معينة، أو التسليم من أحد أطراف الخطاب.

الدراسات السابقة لموضوع الاقناع والحجاج:

لقد كانت سمة الاقناع من السمات البارزة التي ظهرت في الخطاب القرآني، والخطاب النبوي، ولذلك فقد اعتنى علماؤنا العرب بها اعتناء كبيرا، لأنها كانت وسيلة مهمة في تبليغ الدين الجديد وإقناع الناس به، ومن الدراسات الجادة في هذا الموضوع كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ ركز على وسائل الإقناع عند الخطيب، وعند الشاعر، وكذلك كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد الباجي، وكذلك مقدمة ابن خلدون.

وفي الدراسات الحديثة حظي (الاقناع) بأهمية قصوى، حيث ظهر في كتابات عربية كثيرة جادة، في هذا المجال من مثل كتاب أصول الحوار وتجديد علم الكلام، لطه عبد الرحمن، وكتاب في بلاغة الخطاب الاقناعي لمحمد العمري، وكتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، لمجموعة من المؤلفين إشراف حمادي صمود.

وفي الدراسات الغربية نجد جهودا متنوعة نحو كتاب: البلاغة الجديدة بحث في الحجاج، لشاييم بيرلمان وأولبريكت تيطيكا، وكذلك أعمال ديكرو عند حديثه عن الدلالة المدمجة، وميشال ميار عن نظرية المساءلة.

ملامح الخطاب الاقناعي:

يتميز الخطاب الاقناعى بمجموعة من الملامح نذكر منها:

يتوجه إلى متلق.

يعبر عنه بلغة طبيعية.

مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

لا يفتقر تقدمه أو تناميه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

ليست نتائجه وخلاصاته لازمة.

- آليات الإقناع:

تنقسم آليات الاقناع إلى قسمين:

العلامات اللغوية: وهي ما يستعمله المتكلم من تقنيات لفظية لاقناع المتلقي، وهو ما سنركز عليه.

العلامات غير اللغوية: سواء أكانت مصاحبة للتلفظ، أم لا، مثل الأدلة المادية على وقوع الجريمة، أو ما يصاحب اللفظ من تنغيم، وإشارات جسدية وهيئة معينة.

- ملاحظات مهمة:

وقبل أن نستعرض أهم العلامات اللغوية الحجاجية، نذكِّر بالآتي:

على المتكلم حسن تدبير وانتهاز المناسبة بين الحجة والسياق في صورتها المثلى، حتى يسد السبيل على السامع، فلا يجد منفذا إلى استضعاف الحجة، والخروج عن دائرة فعلها.

كل سياق يستلزم خيارات معينة دون غيرها، مما يجعل الحجاج في شكله النهائي ترجيحا بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته عدول عن امكانات لغوية أخرى، يتوقع أنها أكثر نجاعة في مقام معين.

يمكن استعمال حجة واحدة من جهتين مختلفتين، وهو ما يكسب الخطاب طواعية ومرونة في ذهن المرسل ليحتج به، كما يكسبه المرونة نفسها عند المرسل إليه ليعترض عليه، مثل:

لم يبق من الخزان إلا نصفُه.

لم نستهلك إلا نصفَ الخزان.

فالمثال الأول يحرص على اقناع المتلقي بوجوب أخذ الاحتياط، بينما في الثاني يحرص على اقناعه بمواصلة الطريق. (مع أن الأدوات اللغوية واحدة)

كما يكون الحجاج بالخطاب التصريحي، يكون بالخطاب التلميحي.

- العلامات اللغوية الحجاجية:

يمكن تقسيم العلامات الحجاجية اللغوية إلى:

الأدوات اللغوية الصرفة: مثل ألفاظ التعليل، والتركيب الشرطي، والأفعال اللغوية، والحجاج بالتبادل،

الأدوات البلاغية: مثل تقسيم الكل إلى أجزائه، والإستعارة، والبديع، والتمثيل.

الآليات شبه المنطقية، ويجسدها السلم الحجاجي، بأدواته وتقنياته اللغوية، ويندرج ضمنها كثير منها، مثل الروابط الحجاجية: لكن، حتى، فضلا عن، ليس كذا فحسب، أدوات التوكيد، ودرجاته، والإحصاءات.

-١- الأدوات اللغوية:

وسنعرض الآن بشكل مجمل كل نوع من الأنواع السابقة، ونبدأ بـ:

-١- الأدوات اللغوية الصرفة، وهي:

ألفاظ التعليل: كالمفعول لأجله، ولفظة (سبب)، و(لأن)، مثل: المرأة عندما تعاق يعاق نصف المجتمع، لذا يجب إيلاء المرأة المعاقة _كما يولى الرجل_اهتماما، لتحقيق التنمية.

تبرير ابن المبارك عدم اغتيابه للناس: لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والديَّ، لأنهما أحق بحسناتي.

التركيب الشرطي: مثل خطاب مرثد الخير في الإصلاح بين حيين: فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضَّبت عرى الإبقاء، وشمَل البلاء.

الأفعال اللغوية: مثل السؤال، كمن يريد إقناع شخص بالإقلاع عن التدخين، فيوجه إليه مجموعة من الأسئلة:

هل تسمي الله عند شرب الدخان؟ هل تشرب السيجارة باليمين أو باليسار؟ أتقول الحمد لله عندما تنتهي من السيجارة؟أشرب الدخان من الصفات الحميدة التي تود أن يأخذها عنك أولادك؟

الحجاج بالتبادل: أن يصف الحال نفسها في موضعين ينتميان إلى سياقين مختلفين، مثل:

ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة.

لا ترضى لي إلا ما ترضاه لنفسك.

-٢- الأدوات البلاغية: ومنها:

تقسيم الكل إلى أجزائه: بحيث يذكر المتكلم حجته كليا في أول الأمر، ثم يعود إلى تعداد أجزائها، وذلك ليحافظ على قوتها الحجاجية، كـ:من يقول إثباتا لإجرام (شارون): إنه يحاول تدمير فلسطين، وهذا ظاهر في أعماله، من خلال تقديم آلاف الشهداء، وتدمير المنشآت الإقتصادية، وتهجير الأهالي.

الصورة (الاستعارة والتشبيه): كما في قوله تعالى: إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام..(يونس٢٤)

وقوله: ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (الصف١٠).

البديع: وله تأثير كبير على المتلقي، ولا يقف دوره عند الزينة، (مثله في ذلك مثل الخطاب الإشهاري الذي يعتمد التزيين لإقناع المستهلك بالمنتوج)، انظر إلى الطباق الموجود في هذا النص:

جرى بين أبي الأسود الدؤلي وبين امرأته كلام في ابن كان لها منه وأراد أخذه منها، فسارا إلى زياد وهو والي البصرة، فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه،وثديي سقاءه؛ أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام ..

حتى إذا استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوعكتْ أوصاله؛ وأملتُ نفعه؛ ورجوتُ دفعه؛ أراد أن يأخذه مني كرهاً، أنصفني أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري.

فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده؛ وأمنحه علمي، وألهمه حلمي؛ حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله.

فقالت المرأة: صدق، أصلحك الله، حمله خفاً، وحملته ثقلاً؛ ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً؛ فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك، ودعني من سجعك.

-٣- الآليات شبه اللغوية:

ويمثلها السلم الحجاجي: وهو: ترتيب المعطيات القولية، بحيث كل قول يسلم للذي يليه، بتراتبية تزيد في حجاجيته، مثل قولنا:

ناصر من أكفإ الضباط، فقد نال ميدالية التقدير من الدرجة الأولى، ونال وسام الملك فيصل من الدرجة الثانية، ونال مؤخرا وسام الملك عبد الله من الدرجة الأولى.

وقولنا: فلان بخيل، لا يقرض أحدا، ولا يتصدق، ولو طلبته ذنبا من ذنوبه فلن يعطيك إياه.

ويدخل في السلم الحجاجي ما يسمى بالأدلة أو الشواهد الجاهزة، كالأدلة القرآنية، والأقوال النبوية، وأقوال السلف، والحكم والأمثال، وأقوال العلماء في التخصصات المختلفة، ولا يقتصر ترتيبها السلمي على متنها، بل تتجاوز قوته إلى سند الرواية إن وجد.

وله وسائل لغوية كثيرة تحققه، منها:

الأدوات اللغوية، كالروابط الحجاجية (بل، لكن، حتى، فضلا عن...)، درجات التوكيد.

الصيغ الصرفية (أفعل التفضيل، صيغ المبالغة).

المفهوم: (الموافقة والمخالفة).

الإحصاءات.

الأمثلة:

لماذا تكذب عند التحقيق معك؟ ما كذبت، لكني احتلت في كلامي.

محمد مجتهد، إن محمدا مجتهد، إن محمدا لمجتهد، والله إن محمدا لمجتهد.

أنت أفضل من صاحبك. أنت نصر للمظلوم.

قول الله تعالى: فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ (الإسراء٢٣) فإنه يفهم منه من باب أولى النهي عن ضربهم أو شتمهم أو أذيتهم بأي وجه من الوجوه.

قوله صلى الله عليه وسلم: في سائمة الإبل الزكاة. ويفهم منه بالمخالفة أنها إذا لم تكن سائمة فلا زكاة فيها.

ملاحظة:

كل ذلك في في النثر والشعر، ومن أمثلته في الشعر، شعر النقائض، وأحسن ما يمثله في الشعر التشبيه الضمني، مثل:

من يهن يسهل الهوان عليه .. ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

وإذا أراد الله نشر فضيلة .. طويت أتاح لها لســـان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت.. ما كان يعرف طيب عَرفِ العود

ومن الخير بطء سيبك عني .. أسرع السُحْبِ في المسيرِ الجهامُ

- ضوابط الخطاب الحجاجي:

هناك مجموعة من الضوابط تحكم الخطاب الإقناعي حتى لا يحيد عن مساره الطبيعي، نشير إلى بعضها:

أن يكون ضمن الثوابت الدينية والعرفية، فليس كل شيء قابلا للنقاش، أو الحجاج.

أن تكون دلالات الألفاظ محددة، والمرجع الذي تحيل إليه معين.

ألا يقع المرسل في التناقض بقوله أو فعله، كمن يدعي أنه معلم، وهو في الوقت ذاته يعامل المتلقي معاملة سيئة.

موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلا بدا زيف الخطاب، ووهنت الحجة، مثلما حدث في الخطاب التالي: رزق أحد الموظفين بتوأم، وعندما ذهي إلى العمل في اليوم الموالي، سأله صديقه: هل أخبرت المدير بأنك رزقت توأم، حتى يمنحك إجازة يوم؟ فرد عليه: كلا لقد أخبرته بأني زوجتي وضعت طفلا واحدا فقط، وذلك حتى أستطيع أن أحصل على إجازة أخرى غدا، عندما أخبره أنها وضعت مولودا آخر.

توافر معارف مشتركة بين طرفي الخطاب مما يسوغ قبول المرسل إليه لحجج المرسل، أو إمكانية مناقشتها أو تصنيفها، وإلا انقطع الحجاج بينهما، كما في المثال الآتي:

شكا عجوز ألما في ساقه، وعندما فحصه الطبيب، قال له: هذه آلام طبيعية، وهي نتيجة عن كبر السن، ولكن العجوز لم يقتنع بتلك الدعوى، وقال للطبيب بخطاب ساخر: لو كان الأمر كذلك لآلمتني ساقيَ الأخرى، فإن لها نفس سن الساق التي تؤلمني.(منطق الطبيب لا يعتمد على المنطق الرياضي وهذا ما لم يفهمه العجوز)

مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام، لأن الحجاج قد يكون صحيحا من الناحية النظرية، ولكنه غير مناسب للسياق، إذ يمثل مهربا للمرسل من المسئولية، ومثاله:

- **قال الزبون لصاحب المطعم في اشمنزاز ظاهر: لقد وجدت قطعة نقدية في قعر كوب الماء، فما معنى ذلك؟**
- **فاجابه: معنى ذلك أن المعادن لا تطفو على سطح الماء.**

ضرورة خلو الحجاج من الإيهام بالمغالطة، والابتعاد عنها، لأنه لا يخلو منهما الحجاج عادة، إذا كان معنى الخطاب غير محدد، إذ يصبح من قبيل الخطاب العام الذي لا يكتشفه المرسل إليه إلا بعد حين، كما فعل الرجل الذي أراد أن يخطب فتاة من أهلها، فأخذ يصف نفسه بأنه مهم إلى درجة أن الناس يصفقون له عندما يرونه، ولذلك فرح الأهل به، لأنهم توقعوا أنه شخصية مرموقة، ولكن اتضح أنه نادل في أحد المطاعم.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
المتلقي ودوره في الخطاب

المحاضرة الحادية عشرة

المتلقي ودوره في الخطاب

السامع هو الطرف الثاني في عملية الخطاب، وبه يتعلق إنجاح الخطاب، أو إفشاله، لأنه هو الذي يحقق هدف المتكلم، أويفوته عليه، ومن ثم اعتنى علماء تحليل الخطاب به اعتناء يقارب اعتناءهم بصاحب الخطاب، وفي هذا العنصر نحاول أن نحدد ما يأتي:

مفهوم المتلقي (السامع).

أنواعه.

كفاءاته.

الفهم والتأويل.

- مفهوم المتلقي (السامع):

هو الطرف الذي يتوجه إليه الشخص المتكلم بخطابه، ويقصده به.

وهناك مصطلحات كثيرة تطلق عليه، كما أطلقت مصطلحات متعددة على المتكلم، ومن هذه المصطلحات:

السامع. المرسل إليه. المخاطب.

المتلقي. المستمع.

وقد نظر إليها علماء تحليل الخطاب على أنها مترادفات، بينما رأى بعضهم ضرورة التفريق بين مفهوم كل مصطلح على حدة، فمثلا يقصر (المرسل إليه) على الآلة التقنية التي تتلقى الخطاب (آلة تسجيل، جهاز كمبيوتر، إنسان آلي...)، كما يخص (المخاطب) الذات المتواجدة في المقام التخاطبي المباشر والحي،

وفرقوا بين السامع والمستمع، على اعتبار أن المستمع هو المتقبل الموجود في مقام تواصلي شفوي، وهو مقام لا يمكن له مبدئيا إلا أن يكتفي بالاستماع إلى ما يقوله المتكلم، دون أن يستطيع تناول الكلمة (مثل الوسائط الإذاعية، أو الدرس والمحاضرة، خطبة الجمعة، مداعبة رضيع..).

مكانة المتلقي ودوره في الخطاب:

إن دور السامع لا يقتصر على تلقي الخطاب بشكل سلبي، بل إن بناء الخطاب ذاته وتداوله مرهون _إلى حد كبير_ بمعرفة المتكلم لحال المتلقي أو بافتراضها، وقد بينّا في ما مضى أن الافتراض المسبق ركن ركين في النظام الخطابي بشكل عام، وكذا حضور هذا المتلقي في ذهن منشىء الخطاب سواء أكان هذا المخاطب حاضرا حضورا ماديا، أو كان حاضرا حضورا متصورا، وسواء أكان معينا أثناء الخطاب، أو كان غير معين، ككتابة القصة، ونشرالقصيدة في مجلة إلى غير ذلك.

ثم هو بعد استقباله الجيد للخطاب، عليه أن يفهمه الفهم المناسب الذي يأمله صاحبه، ولا يحقق السامع ذلك إلا إذا حلله تحليلا جيدا مستعينا بالسياق، وبمعرفته بالمتكلم، وكل ما يمكّنه من الوصول إلى مقصود صاحب الخطاب من خطابه.

- كفاءته التواصلية:

تعد الكفاءة التواصلية مكونا فاعلا ضمن تكوين الإنسان السوي، كما هي كفاءته اللغوية، بيد أن الكفاءة التواصلية ليست نسقا بسيطا، بل هي أنساق متعددة متآلفة، إذ تتألف لدى متلقي اللغة الطبيعية من خمس ملكات على الأقل، وهي:

الملكة اللغوية.

الملكة المنطقية.

الملكة المعرفية.

الملكة الإدراكية.

الملكة الاجتماعية.

ويعرف (ديك) هذه الملكات الخمس على النحو الآتي:

الملكة اللغوية: وبها يستطيع متلقي اللغة أن يؤولها تأويلا صحيحا، إذ العبارات والجمل ذات بنيات متعددة جدا، ومعقدة للغاية في عدد كبير من المواقف التواصلية المختلفة.

الملكة المنطقية: بإمكان متلقي اللغة الطبيعية على اعتباره مزودا بمعارف معينة، أن يشتق معارف أخرى، بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادىء المنطق الاستنباطي، والمنطق الاحتمالي.

الملكة المعرفية: إذ بمقدور المتلقي أن يكون رصيدا من المعارف المنظمة، كما يستطيع أن يشتق معارف من العبارات اللغوية، كما يستطيع أن يختزن هذه المعارف في الشكل المطلوب، وأن يستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية.

الملكة الإدراكية: ويتمكن من خلالها السامع من الوصول إلى المقاصد الخطابية، وإن لم تكن ظاهرة على سطح اللغة.

الملكة الاجتماعية: بحيث يستطيع المتلقي أن يتلقى خطابه ويؤوله بما يخدم الموقف التواصلي، وبما يعزز العلاقة بينه وبين أطراف الخطاب الأخرى.

المتلقي بين تـأويل الخطاب وفهمه:

تقوم الخطابات المتنوعة التي يدرسها تحليل الخطاب على أنظمة لغوية محددة العلاقات والوظائف بين العناصر والسياقات وظروف الإنتاج والفضاءات الزمكانية . لذلك فإن (العلامات النصية) تحتاج في هذا المجال إلى شخص يتلقاها لكي يمنحها دلالاتها ومقاصدها التداولية ويتجاوب معها لأنه لا وجود ولا حياة للنصوص المتنوعة ولا قيمة لمعناها من دون المتلقي ، الذي قد يكون فعليا أو ضمنيا .فهو الذي يمنحها معانيها الحقيقية ، من خلال إدراكه ووعيه الخاص و .تتظافر في هذا المستوى ثلاث سلطات للقيام بهذه المهمة الشائكة:

أ _ .

أ _ سلطة الكاتب.

ب _ سلطة النص.

ج _ سلطة المتلقي.

لذلك فإن المتلقي المتمرس يؤدي دورا مهما في مجال تحليل الخطاب ؛ إذ إنه يستخدم استراتيجيات قراءة معينة لصناعة معاني الخطابات التي تصادفه ويملك هذا المتلقي (نطاق توقعات) ، أو (مؤسسة تأويل) يستهل بها عملية الفهم والتأويل للنصوص، ويستلزم هذا الأمر توفر بعض الشروط الجوهرية:

وجوب امتلاك المتلقي المتمرس لشفرة أو استراتيجيات تفسير ونقد ملائمة للنص المحلل.

ربطه لعلاقة النص برؤيته للعالم والفرضيات النظرية والاهتمامات الخاصة والتجربة الذاتية.

بناؤه واكتشافه للمعنى عن طريق منح الدلالة مشروعية تأويلية على المستوى النقدي.

قدرته على ملء فراغات النص المفسر وتكملته.

ونجد المتلقي يبذل في مجال تحليل الخطاب جهودا متواصلة عند كل مرحلة من المراحل السابقة لإعادة البناء والتركيب والتكملة ، وهو ما ننعته ب(مسار الإرتقاء)، إنه هو الذي يعضد وينقح ويقوّم في كل مرحلة عمليات بناء متراصة من أجل الربط بين تجربة المتلقي في قراءة النص والعلامات الهيكلية للنص وقصد الكاتب و(نطاق التوقعات) الاتفاقية أو (مؤسسة التأويل) العامة.

و في كل ذلك يقدم المتلقي قراءة تأويلية غير استهلاكية ، حيث يتجاوز رصد المعاني اللفظية ليتوغل في أعماق دلالات ومقاصد الخطابات، إنه يركز على السياقات الثقافية للعمل ، فيميز بين أساليب مختلف العصور والمدارس والمؤلفات، ويسبر أغوار المنطق الداخلي للإنتاج ، من خلال تذوقه الجيد .

كما يضبط الأصوات والإيقاعات والألوان والخطوط البانية للإبداع تبعا للمنطق والعقل والموضوعية . ويتعقب المتلقي هنا الخصائص الحسية فيربط المعاني بتجربته الخاصة ليصل في النهاية إلى تحديد الخصائص الأسلوبية المؤطرة للخطاب برمته.

ويمثل المتلقي في مجال تحليل الخطاب ذاتا متميزة ، تحمل تجربة خاصة ترتبط بقراءة أو(مشاهدة) نص يجسد موضوعا حيا ، الأمر الذي يجعل الاثنين يتوحدان معا ، فيصبح الفصل بينهما صعبا جدا . ينتقل المعنى هنا من داخل النص إلى داخل المتلقي . لذلك تغدو العلاقات والوشائج متينة بين المتلقي والنص ، أكثر منها بين المتلقي والكاتب . لكن لا يمكن للمتلقي فهم وتأويل النصوص في هذا المجال اللغوي بمعزل عن قصد الكاتب . فهما يساهمان معا في بناء الرسالة التي يقدمها النص

إن طرح تحليل الخطاب لسلطة المتلقي ، من خلال علاقته بالنص قد قضى على فكرة النص المغلق كما كان عند البنيويين ، لكنه فتحه بطريقة موضوعية وواعية . فالعلاقة بين الطرفين هنا جدلية ، حيث تتعدد أسئلتها ومثيراتها ، التي تدفع المتلقي إلى إنتاج نص تقييمي حول نص إبداعي.

وتبقى سلطة المتلقي متعادلة ومتكاثفة مع سلطة الكاتب وسلطة النص . فهي لا تقوم لمجرد التفسير فقط ، بل تتوخى الكشف عن الشروط التي تمنح النص تأثيرات متنوعة والكاتبَ وجودا فعليا موضوعيا ووضعيا . يوسع هذا المتلقي قصد الكاتب ويطوره بفعل القراءة التفسيرية ، حيث يؤول نسق العلامات النصية ليمنحها معانيها التداولية ويتجاوز وجودها المادي واللفظي.

مسار التحكم النصي عند المتلقي:

ومن المسلم به في هذا المجال اللساني الجديد أن تحديد دلالة النصوص يرتبط بالكاتب والخطاب والمتلقي ، بناء على عملية ثلاثية جدلية متلاحمة يسودها التعادل والمساهمة المتضافرة . يسعى هذا التخصص هنا إلى الحد من عملية الشك بتفسيرات المتلقي وفوضى الدلالة وأزليتها . لذلك فهو يهتم بما يعرف بـ (مسار التحكم النصي عند المتلقي) ، حيث نجد:

سيادة المتلقي المتمرس / القدوة.

استخدام نطاق توقعات أو (مؤسسة تأويل) ، وهي اتفاقية معممة بين الكاتب والنص والمتلقي.

التوسع في الموضوعية والتقليل من الذاتية.

وهنا تصبح عملية التلقي (جيدة)، ولا علاقة لها بـ(بالتواطؤ والإكراه) أو (التعطيل والإعدام) لمعنى النصوص المفسرة .

ويمارس المتلقي عدة مستويات من القراءة للخطابات التي يتعامل معها:

أ _ قراءة في جمالية النص.

ب _ قراءة في تاريخه.

ج _ الربط بين أفق الماضي وأفق الحاضر للقراءة.

إن مهمة لسانيات تحليل الخطاب بشكل عام هي تقصّي وضبط الوسائل والطرائق التي تقنن تفسير الخطابات المتنوعة . فالتحليل اللساني في هذا المجال ليس ذاتيا ولا موضوعيا برمته ؛ إنه مزيج بين الاثنين بصورة متعادلة و متوازية و معقلنة ومعللة . لا تخلق النصوص من فراغ ولا يمكن أن تعيش في وسط يعج بفوضى التفسيرات والترف التأويلي التافه ، المعبر عن الخواء الحضاري وانعدام المسؤولية وضوابط التنميط والمساهمة في الإنتاج .

لذلك فإن هذه اللسانيات تعيد الأمور إلى نصابها بشفافية وعمق وموضوعية ومسؤولية ، مراعية جل أخلاقيات البحث العلمي وأدبياته ، حيث تمنح سلطة الكاتب وسلطة النص وسلطة المتلقي قيمتها الجمالية والفكرية والفنية ، دون إيثار و طغيان و تبجح وحذلقة وترف أجوف متسول بالنسبة لسلطة على أخرى.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
السياق وتحليل الخطاب

المحاضرة الثانية عشرة

السياق وتحليل الخطاب

إن قرينة السياق تمتد على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث مبانيها، ومن حيث علاقاتها النحوية، وتنتهي بالعناصر غير اللغوية، مثل ظروف المتكلم والمتلقي، والأبعاد الاجتماعية والفكرية والنفسية المحيطة بالحدث التلفظي، مما يجل قرينة السياق هذه كبرى القرائن، إذ المقال والمقام قطبان يكتنفان الخطاب، بحيث لا يبنى ولا يتضح ولا يحلل إلا في ضوء الاستعانة بعناصرهما.

مفهوم السياق:

-أ- السياق لغة:

جاء في تاج العروس: أصل السياق: السواق، قلبت الواو ياء لكسرة السين، والساقة جمع سائق، وهم الذين يسوقون الجيش، ويكونون من ورائهم، وساق الماشية سوقا وسياقة بالكسر، ومساقا وسياقا، واستاقها وأساقها فانساقت، فهو سائق وسواق، ومنه (قد لفها الليل بسواق حطم)، وقوله تعالى: إلى ربك يومئذ المساق (القيامة ٢٩)، وقوله: معها سائق وشهيد (ق٢١).

يتبن لنا من ذلك أن مادة (س و ق) تدور حول القيادة والإحاطة، فسائق الشيء هو القائد له، أو المسيطر عليه، أو الدافع له، وهي معان متقاربة.

-ب- السياق اصطلاحا:

هو المرجع الذي يحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادة القول، ويكون لفظيا، أو قابلا للشرح اللفظي.

أي أن السياق يمثل خلفية القول، حيث يجعله يُفهم بمقتضاها، فكل كلمة أو جملة توضع في إطار أو نسق معين، يعتبر هذا الإطار وذلك النسق سياقا لها، فالكلمة المفردة لها سياقها، والتركيب له سياقه، والنص له سياقه، وكل هذه السياقات تتشابك لتنضوي تحت السياق العام للخطاب، فنوع النص يعد سياقا للخطاب المتفرع عنه، والنص بطبيعته يخضع للسياق الثقافي الذي يحتويه بكل ما فيه من أعراف وتقاليد،

ولهذا فإن عالَم الخطاب اللغوي وما يحيط به يشكل سياقا جديدا، يجعل المعاني تختلف عن المعاني الموجودة في المعجم.

ملاحظة: كثيرا ما يستعمل مصطلح المقام بدل مصطلح السياق، ونحن نشير إلى أن مصطلح المقام اشتهر عند علماء البلاغة العرب، بينما استعمل المحدثون خاصة الغربيين منهم مصطلح السياق، وذلك منذ أن ابتدعه مالينوفسكي، وأخذ مفهومه يتسع ويتطور بشكل كبير.

دور السياق وأهميته في تحليل الخطاب:

يحتل السياق في علم تحليل الخطاب مكانة هامة، لأنه من ركائز عملية التخاطب كما بينا ذلك في محاضرات ماضية، ويمكن أن نحدد فيما يأتي أهم الجوانب التي تثبت هذه الأهمية، وهي:

إن صاحب الخطاب لا يتقيد بحرفية اللغة، كما أن المعاني متجددة باستمرار، ولا بد - كي نحددها أو نتأثر بها – من الوقوف على سياقاتها التي وردت فيها.

إن صاحب الخطاب قد يستخدم الكلمات استخداما جديدا، يكسبها معنى خاصا، وهذا المعنى يفسره السياق، لأن الكلمات في كل نص تبتعد عن علاقاتها العادية، وتبحث عن علاقات جديدة.

في بعض الأحيان تكون كلمات اللغة غير قادرة على توصيل أفكار ومواقف المتكلم، ولكن كل ذلك يكون منبثا عبر أنفاس الكلمات في النص، لهذا فإنه لكي يتحقق التلقي الجيد لهذا الخطاب، لا بد من تلمس القرينة التي تضيىء السبيل لإدراك هذه الغاية.

يساعد المتلقي على تلمس المعاني الموجودة داخل النص، والمندسة في ثناياه وبين سطوره، فهو في أحايين كثيرة لازم لتحديد حتى المعنى الحرفي، كما في قوله تعالى: إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ (الأنفال ٤٨) فلا يمكن معرفة ما إذا كانت الرؤية هنا بصرية وليست قلبية، إلا بالاطلاع على السياق الذي وردت فيه.

والسياق هو الذي يحدد ما إذا كانت (إنْ) نافية أو شرطية أو مخففة من الثقيلة في البيت الآتي :

أنا ابنُ أباةِ الضيمِ منْ آلِ مالك = وإنْ مالك كانت كرامَ المعادن.

فسياق الفخر يدل على أن (إنْ) في البيت مخففة من الثقيلة، وهذا ما ينسجم مع الشطر الأول من البيت.

إن اختلاف السياقات من استعمال إلى استعمال هو الذي يجعل للدال الواحد أكثر من مدلول، وللمدلول أكثر من دال، ولهذا السبب كانت الدلالة خاضعة لجدلية الاستعمال.

السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي هو الذي يجعلنا نفضل كلمة على أخرى إذا كان معناهما العام واحدا، وعلى هذا استند بعض البلاغيين في التفريق بين الألفاظ التي تبدو مترادفة، وذلك حسب السياق الذي يفرض على المتكلم اعتماد هذه الكلمة دون تلك، لأنها تتناسب وغرضه.

وهنا نذكِّر بمجهود العلماء في التأليف في الفروق اللغوية، كما فعل أبو هلال العسكري في كتابة الفروق في اللغة، ففرقوا مثلا بين الثغر والفم، والقعود والجلوس، وبَين الْقَدِيم والعتيق، وبَين الْفَرد وَالْوَاحد، وبَين الإنعام والإحسان، وَبَين النِّعْمَة وَالرَّحْمَة والرأفة، والنفع وَالْخَيْر، وَبَين الْحلم وَالصَّبْر وَالْوَقار والتؤدة ومن هذا المنطلق

روى النقاد قصة طرفة بن العبد وهو صبي عندما سمع المتلمس ينشد قوله .

وقد أتناسى الهم عند احتضاره = بناج عليه الصَّيعَرِيَةُ مُكْدَم

الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق الجمل فقال طرفة : استنوق الجمل ، فضحك الناس وسارت مثلاً.

أنواع السياق:

يمكن أن نقسم السياق بمعناه العام بعدة اعتبارات، منها:

اعتبار أطرافه: خاصة المتكلم، والرسالة، والمتلقي، إلى:

١- سياق المرسِل: ويتمثل في الظروف المحيطة به أثناء فترة إنشاء الخطاب، من هذه الظروف المحيط الاجتماعي، والاستعدادات والإمكانات والانفعالات التي تؤثر بدورها في عملية إنشاء الخطاب.

-٢- سياق الرسالة: ويتمثل في الهيئة التي تشكلت بها، والقالب أو الإطار والموضوع الذي صيغت فيه، وهذا كله يندرج تحت عنصر نوع الخطاب الذي تنتمي إليه الرسالة، ثم السياق اللغوي، فالحضاري العام.

-٣- سياق المتلقي: ويكمن في المواقف الذاتية والاستعدادات النفسية، والرؤية الخاصة، التي ينطلق منها في فهمه للنصوص، أثناء ممارسته لعملية التلقي.

اعتبار الخطاب: في حد ذاته، وهذا الاعتبار هو الأشهر والأضبط والمعتمد عند علماء تحليل الخطاب، ويقسم السياق فيه إلى:

- ١- سياق غير لغوي: ويطلق عليه كذلك الخِطابي، والخارجي.

٢ - سياق لغوي: ويسمى كذلك النصي، و الداخلي.

وسنبدأ الكلام عن النوع الأول.

السياق غير اللغوي

- إن تفهم أبعاد الخطاب اللغوي لا يتم بالوقوف عند عتبات اللغة، وجماليات الألفاظ ومعانيها فقط، بل لا بد من الاهتمام بالجوانب الأخرى الخارجة عن نطاق اللغة التي تساعد على تفهم الخطاب، فكما أن للمعنى والقصد في الخطاب اللغوي علاقتَه القوية بالبناء اللغوي، فكذلك له علاقة بالقرائن الخارجية التي تعد بمثابة التربة التي استنبتت فيها.

وخير مثال على ذلك ما جاء عند علماء الإسلام في بيان أهمية معرفة أسباب النزول في توضيح معاني الآيات، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، كما أن هناك أبحاثا في أصول الفقه استندت على معرفة سبب النزول، أو أفادت منها، مثل: (خصوص السبب وعموم اللفظ). وقد ذهب الواحدي في كتابه (أسباب النزول) إلى أن: أسباب النزول أول ما يجب الوقوف عليه، وأول ما تصرف العناية إليه، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

ونقدم نموذج على ذلك وهو: قول الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما} [البقرة: ١٥٨].
من المعروف أن السعي بين الصفا والمروة جزء من شعائر الحج واجب الأداء، وعبارة (لا جناح) في الآية الكريمة لا تفيد الوجوب، وقد أشكل هذا على عروة بن الزبير فسأل خالته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فأفهمته أن نفي الجناح في الآية ليس نفيا للفرضية،

إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين- وهم في مطلع عصر الإيمان- من أن السعي بين الصفا والمروة كان من عمل الجاهلية، فلقد كان على الصفا صنم يقال له: إساف، وكان على المروة صنم يقال له: نائلة، وكان المشركون في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة ويتمسحون بالصنمين. ولقد حطّم الصنمان بعد فتح مكة، لكن المسلمين تحرّجوا في الطواف بينهما فنزلت الآية.

- وما يجدر ذكره هنا هو أن معرفة السياق الخارجي للخطاب لا يقصد بها التعمق في معرفة شخصية صاحبه وميوله وتطلعاته، أو التعرف المعمق على ظروف المجتمع وتاريخه، بقدر ما يقصد بها النظر إلى الخطاب وتفهمه في حدود أنه خبرة للمتكلم، انعكست على النص، وأنه قيمة جمالية وتواصلية قوامها اللغة.

يقودنا ذلك إلى الإقرار بتعدد الدلالات والمستويات للخطاب، فالخطاب (أدبي وغير أدبي) ليست له دلالة أحادية مسبقة، بل هو متعدد الجوانب التي يمكن أن يطالها التحليل، وذلك حسب الرؤية التي ينظر منها إليه، كالجانب النفسي، أو الاجتماعي، ويمكن التمثيل لذلك بما رواه البخاري،

عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال:لمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر:إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم . فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال:ما تقولون في قول الله عز وجل:(إذا جاء نصر الله والفتح)؟ فقال بعضهم:أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئا

فقال لي:أكذلك تقول يا بن عباس ؟ "فقلت لا . فقال:ماتقول ؟ فقلت:هو أجَلُ رسولِ اللهﷺ أعلمه له، قال:(إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك(فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). فقال عمر ابن الخطاب:لا أعلم منها إلا ما تقول.

كما أننا نذكر أن من أهم مميزات هذا النوع من السياق، أنه – عكس السياق اللغوي الذي يمكن حصر عناصره وتحديد جوانبه – فإنه من الصعب _إن لم يكن من المستحيل_ الأحاطة به وحصر صوره، إذ هو لا يخضع لمعيار أو قانون محدد يحكمه، لأنه قد تتداخل ظروف كثيرة بتكوين الخطاب وتحليله، وقد يغلب جانب منها على آخر، فيختلف تبعا لذلك فهم النص، والحكم عليه

من حيث القيمة، ولهذا السبب فإن دراستنا ستدور حول السياق الخارجي بما يخدم السياق اللغوي للنص، ويكون متعلقا به تعلقا مباشرا، ومن السياقات الفرعية التي تندرج تحت هذا النوع من السياق، والتي نراها ذات صلة وطيدة بلغة الخطاب ومدلولاته هي:

السياق النفسي.

السياق المقامي.

السياق الاجتماعي.

وهذا ما سنذكره في المحاضرة القادمة بعون الله تعالى.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
أنواع السياق غير اللغوي

المحاضرة الثالثة عشرة

أنواع السياق غير اللغوي

ذكرنا في المحاضرة السابقة أن السياق بمعناه العام ينقسم قسمين: سياق غير لغوي، وسياق لغوي، كما بينا أهمية السياق في تحليل الخطاب، ونأخذ الآن في تبيين أنواع القسم الأول، وهي:

السياق النفسي.

السياق المقامي.

السياق الاجتماعي.

-١- السياق النفسي

ونقصد به السياق النفسي للمتكلم والذي يؤثر على انتاج الخطاب، وكذلك السياق النفسي للمتلقي، والذي يؤثر على استقبال الخطاب وتحليليه.

والغاية من دراسة هذا النوع من السياق تتمثل في التمييز بين المعنى النفسي والمعنى المنطقي، فالمعنى النفسي يختلف باختلاف الأفراد، فهو ذاتي بخلاف المعنى المنطقي، الذي يتميز بالموضوعية.

ويعد المنهج النفسي أحد المذاهب المعروفة في مجال الدراسات الأدبية، ومن أهم المبادئ التي يقوم عليها هذا الاتجاه أن التعبير الفني هو صياغة لتجربة تحكمها مثيرات وحوافز داخلية وخارجية، كما أن هذا التعبير أو العمل لا ينفصل عن شخصية مبدعه،

وكما يقول الرمزيون: إنما معرفتنا بالأشياء صادرة عن إحساسنا بها، بل إنها فينا، بل إنها نحن، فأنا

عندما أنظر إلى الطبيعة أحس بها وبما فيها من أشياء بحسب ما في نفسي من أسرار، وبحسب طعم الحياة في فمي، ووقع قوانينها في نفسي، فالطبيعة إذن رمز لوجودي ولحياتي، وليست إلا الطريق التي أعبر بها عن محض إرادتي. بل إن الإنسان في كثير من الأحيان يعيد إنتاج الواقع الخارجي في خطاب يحمل خصائصه النفسية، بشكل يجعل فيه الواقع لا يبدو كما هو في الواقع، وإنما يبدو كما يراه هو.

ومثال ذلك ابن الرومي الذي عرف بالمزاج السوداوي فكان طبيعيا أن يكون متشائما في نحو قوله :

لِمَا تُؤذن الدنيا به من صُرُوفِها يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُولَدُ

وإلا فما يبكيـــه منها وإنهـا لأفْسَحُ ممَّا كان فيه وأرْغَدُ

إذا أبصرَ الدنيا استَهلَّ كأنه بما سوف يلقى من أذاها يُهَدَّدُ

فقد خلع على الدنيا من مزاجه الحزين المتشائم وأبكى الطفل حين الولادة من كوارثها المرتقبة ،

في حين أن شاعرا كالبحتري يخلع على الربيع بهجة من نفسه فتشيع فيه الحياة والجمال :

أَتاكَ الرَبيعُ الطَلقُ يَختالُ ضاحِكاً مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَلَّما

وَقَد نَبَّهَ النيروز في غَلَسِ الدُجى أوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُوَّما

يُفَتِّقُهـــا بَردُ النَدى فَكَأَنَّـــهُ يَبُثُّ حَديثاً كانَ أَمسِ مُكَتَّما

وهذا الأمر يكون في كل أنواع الخطابات، ولكنه يتجلى خاصة في الخطابات الفنية، إذ إن متتبع السياق النفسي للمبدع من خلال عمله يعين على استكناه أفضل لهذا العمل، لأن التعامل مع العبارات والنصوص بحسب دلالاتها الظاهرة قد يكون فيه ظلم للخطاب.

ولقد عاب النقاد على ذي الرِّمَّة قوله في حضرة الخليفة عبد الملك:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ = كَأَنَّهُ مِنَ كُلىً مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

وكانت عين عبد الملك تدمع أبدا، وقيل إن الخليفة حين سمع هذا البيت نهر الشاعر وقال له: ما شأنك وهذا؟ لأنه ظن أن الشاعر يوجه إليه سؤالا شخصيا ينتظر عنه جوابا،

ولكن ذا الرمة عندما جاء إلى الخليفة واستهل قصيدته بهذه الصورة لم يكن متهكما، وإنما الغالب أنه جاء وفي نفسه أن الخليفة سيقضي له حاجته، وسيغدق له من عطاياه، من بعد أن نفذ ما حياته في الصحراء،وليس إلا أن ينقذه الخليفة، فهذه الصورة تعبر عن شكوى مُرَّة أراد الشاعر التعبير عنها، وليست تهجما منه على الخليفة، أو فساد في الذوق.

وإذا ما عرفنا دور المتكلم في العملية التواصلية، وأثر السياق النفسي له في تحديد الدلالة، فإنه لا يمكننا اغفال ما للمخاطَب (المتلقي) من دور أيضا في هذه العملية، فالخطاب لا يمكن أن يتم بمعزل عن سامع ما مدرَك أو متخيل، وهذا الإدراك يختلف من سامع إلى آخر بحسب الأدوات التي يمتلكها.

ومتلقي الخطاب يصدر في تحليلاته عن موقف انفعالي، بحسب ما يسقطه على الألفاظ من معان نفسية، وبذلك يضفي تحليله على النص معان ذاتية، قد تختلف من متلق إلى آخر، حسب تجاربه الشعورية، وحالاته النفسية، ومزاجه العام.

فحالة المتلقي مثلا عند قراءة النص تجعل قراءته قراءة كيفية، بمعنى أن النص لا يبوح بكل ما في باطنه، وإنما يكشف عن بعض مكوناته وفقا للاستعدادات متلقيه، وبهذا نكون إزاء ما يعرف بالنص المفتوح.

ومن الجدير بالذكر أن السياق النفسي وتفاوته بين المتلقين يكشف لنا عن سمو القرآن الكريم من الناحية الفنية، ومن مظاهر هذا السمو اتساعه لأكثر من معنى، بحيث يصعب علينا في كثير من المواضع تخصيص المعنى لوجه دون آخر، ولهذا فإن تعدد المفاهيم بحسب قدرة المتلقين وتوجههم أمر لابد من التسليم به، ففي القرآن ما يرضي أهل العلم، والحكماء، إلى جانب عامة الناس بمختلف طبقاتهم.

وقدرة القاري على أن يأخذ لنفسه شيئا من القرآن ليست دليلا على أنه يفهمه فهما كاملا، فهو يفهم منه ما وسعه عقله وإدراكه، ويترك لغيره ولمن هم أكثر خبرة، وأوسع تجربة، وأكثر استعدادا أن يفهموا منه أشياء أخرى، لم يظفر هو بها.

-٢- سياق الموقف (المقام)

تعد فكرة المقام أو مقتضى الحال من أهم الركائز التي قام عليها البحث البلاغي العربي، حتى إن البلاغة عُرِّفت عند بعضهم بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وصاغوا من هذا المفهوم القاعدة المشهورة: لكل مقام مقال، وهذا يدل على أن مراعاة المقام ضرورة يلتزم بها المتكلم أثناء إنشاء خطابه، كما يلتزم بها المتلقي أثناء تلقيه للخطاب، وفهمه وتحليله،

ولعل فيما رواه صاحب الأغاني ما يؤكد ذلك، حيث روى عن أحمد بن جلاد عن أبيه: قلت لبشار إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت، قال: وما ذاك؟ قلت: بينما تقول شعرا يثير النقع، وتخلع به القلوب، مثل قولك:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية = هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة = ذرا منبر صلى علينا وسلما

تقول: رباب ربت البيت = تصب الخل بالزيت

لها عشر دجاجات = وديك حسن الصوت

فقال بشار: لكل وجه موضع، فالقول الأول جد، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البَيض من السوق، ورباب لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا عندها من قولي أحسن من: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، عندك.

والمقصود بالمقام هنا هو: حصيلة الظروف الواردة في الوقت الذي يتم فيه الخطاب، وما يعتري الموقف من ملابسات لها تأثير في الحدث اللغوي، وبهذا يكون المقام بهذا البعد داخلا في المقام بمفهومه العام، ويعد المقام الضوء الكاشف الذي لا بد من استصحابه عند الوقوف على المعنى.

فالمعنى الحرفي غير كاف لفهم ما قيل، لأنه قاصر عن إبداء الكثير من القرائن الحالية التي تدخل في تكوين المقام، وإن الكثير من نصوص تراثنا العربي قد جاء غامضا، لأن الذين رووا هذه النصوص لم يعنوا بإيراد وصف كاف للمقام الذي أحاط بالخطاب.

وقد طالب النقادُ المبدعين بمراعاة المقامات، قال القاضي الجرجاني وهو يخاطب الشاعر:

(ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كلِّه مجرى واحدا، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلا مرتبته، وتوفِيه حقه، فتلطِّف إذا تغزلت، وتُفخِّم إذا افتخرت..)

ومنه ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين: (وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات).

وأحسن الخطابات التي نتمثل بها في هذا الأمر القرآن الكريم، الذي نجد فيه أن كثيرا من آياته لا يتحدد مدلولها إلا من خلال استحضار المقام، من ذلك قوله تعالى في آخر سورة الأنبياء: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (الأنبياء١١٢)، نجد أن التركيب في هذه الآية يأذن بأن يكون (الرحمن) خبر عن المبتدأ، ولكن المقام يمنع من ذلك.

ويبين أن (المستعان) هو الخبر، لأن المقام مقام استعانة بالله، ويمكن أن نعرف هذا المقام من خلال ملاحظة الآيات السابقة، فقبل هذه الآية قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ، وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

فالمقام هنا مقام مواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين، وليس المقصود أن يطمعهم في الرحمة، بل المقصود أن يستعين عليهم بالله.

ولقد كان سيدنا علي مدركا لحقيقة المقام حينما ردَّ على هتاف الخوارج (لا حكم إلا لله) بقوله: كلمة حق أريد بها باطل، إذ كان المقام في هذا الهتاف من السياسة، والمقال من الدين، وكان ينبغي للناس أن يفهموا المقال في ضوء المقام.

-٣- السياق الاجتماعي

ينطلق هذا العنصر من مسلمة مفادها أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن الإنسان (متكلما أو متلقيا) كائن اجتماعي، ولذا فإن المجتمع يشكل إطارا للغة بحيث تنطبع بطابعه، ويتوقف فهمها على الإحاطة بظروفه، وهو ما يعرف بـ(السياق الاجتماعي)، وهو يشمل كل مكونات المجتمع، من عادات وتقاليد وثقافات...إلخ، ولقد بات من المسلم في علم اللغة أن مدلول اللفظ في لغة ما يتطور بتطور الظروف الاجتماعية المحيطة

بهذا المدلول، كما يؤثر التطور الثقافي والحضاري في أمة ما تأثيرا بالغا في مدلولات الألفاظ، فيتجه بها وجهة معينة، قد تبتعد كثيرا أو قليلا عن أوضاعها الأولى.

ومن الجدير بالذكر هنا أن لكل مجموعة إنسانية لغتها الخاصة بها، كما أن لكل مجموعة داخل المجموعة الكبيرة ثروتها اللفظية الخاصة بها، وهي ثروة تعكس خصائص الموضوعات والمناقشات التي يتناولها أعضاء المجموعة فيما بينهم، والذين تربطهم روابط خاصة.

فالمجتمع السعودي مثلا له في لغته ما يميزه عن غيره من الشعوب العربية، وداخل المجتمع السعودي نفسه، هناك مجموعات كثيرة لها خصائص في خطاباتها، تميزها عن المجموعات الأخرى، كمجموعة الطلاب، ومجموعة الفلاحين، ومجموعة الأطباء، ومجموعة الأئمة، ومجموعة السياسيين وهكذا.

وممن نبه على اختلاف اللغة من جيل إلى جيل، ابن رشيق القيرواني، إذ يقول: فقد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق يقابلون كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألا يخرج عن حسن الاستواء، وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استُعملتْ في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره.

ويبين أهمية هذا العنصر عند علمائنا القدماء أنهم اشترطوا فيمن يريد أن يتعامل مع الخطاب عموما، والتشريعي منه على وجه الخصوص أن يراعي سنن العرب في كلامها، يقول الشاطبي في كتابه الموافقات: لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عُرْف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب.

ومن الأمثلة على ذلك نفور الناس من الشعر الجاهلي، ورميه بالتعقيد والغموض، وما ذلك إلا لبعد المقام الاجتماعي واضمحلاله، فلو قرأنا قول لبيد:

بَلِينا وما تَبْلى النجومُ الطَّوالِعُ = وتَبْقَى الجِبالُ بَعْدَنَا والمَصانِعُ

وعزلناه عن سياقه الاجتماعي، لكنا فسرنا (المصانع) على أنها المؤسسات الصناعية،

ولكن السياق الاجتماعي إلى جانب السياق اللغوي للبيت يدل على أنها المنازل، وهو ما كانت تدل عليه الكلمة في عهد الشاعر.

ولذلك لا يقبل الواحد منا أن نصفه بالكرم بقولنا: جبان الكلب مهزول الفصيل.

سنتحدث في المحاضرة اللاحقة
عن
السياق النصي

المحاضرة الرابعة عشرة

السياق النصي
المفهوم
الأنواع
الإحالة

مقدمة

إن اللغة من منظور علماء الخطاب، نظام من العلاقات، إذ هي ليست مادة، وإنما شكل مكون من رموز اصطلاحية، حيث تتحدد وظيفة كل عنصر من خلال علاقته بالعناصر الأخرى،

وهذه العلاقة (أي علاقة العنصر أو المفردة) إما علاقة رأسية تتمثل في عملية اختيار البدائل (أي الكلمات)، وعلاقاتها، مثل علاقة الكلمة مع الأخرى من حيث الاشتقاق والترادف والتضاد وغيرها،

كما لها علاقات سياقية (أفقية) مع المفعولية مع لفظة (أعجبني)، وعلاقة الإضافة مع (تحليل)، في مثل جملة: أعجبني مقرر تحليل الخطاب، وتتغير هذه العلاقات بتغير موقع الكلمة، كما في مثل: علم تحليل الخطاب علم حديث.

تعريف السياق النصي

هو الهيئة الحاصلة من العلاقات الأفقية والرأسية بين الوحدات اللغوية، التي يتكون منها الخطاب.

ملاحظة

ولقد حظي هذا البعد باهتمام كبير من قبل البلاغيين العرب، وخاصة جهود عبد القاهر الجرجاني في فكرة النَّظْم، والتي كانت منطلقا لمعظم الدراسات التي جاءت بعده، قديمها وحديثها، سواء في ذلك الدراسات التي اختصت بتحليل اللساني للخطاب، أو التي عنيت بجماليات التراكيب على وجه العموم، أو التي اهتمت بدراسة الإعجاز القرآني بصفة عامة.

مستويات السياق النصي

يمكن لنا _لغرض إجرائي بحت_ أن نعين مستويين اثنين في هذا الضرب من السياق، مستوى المفردات، ومستوى التراكيب، بحيث يكون لكل مستوى نوع من السياق، وبذلك يتوافر عندنا:

سياق المفردات.

سياق التراكيب.

- أ - سياق المفردة

ينطلق هذا المستوى من مجموعة من المفاهيم، أهمها:

أن معنى المفردة مرتبط أشد الارتباط بالتركيب الذي توجد فيه، بمعنى أنها تتجاوز البعد المعجمي، لتحتل لها امتدادات جديدة، يهديها إليها السياق. ويمكن أن نمثل لذلك بلفظة (المرض) في سياقات القرآن الكريم، والتي جاءت بأربعة أوجه، هي:

بمعنى الشك، كقوله تعالى: فزادهم الله مرضا (البقرة ١٠)

بمعنى الفجور، كما في قوله تعالى: فيطمع الذي في قلبه مرض (الأحزاب ٣٢)

بمعنى الجراحة، كما في الآية الآتية: وإن كنتم مرضى أو على سفر (النساء٤٣)

بمعنى جميع الأمراض، كما في قوله تعالى: فمن كان منكم مريضا أو على سفر (البقرة١٩٣)

أن الكلمة حين توضع في سياقها الجديد لا يمكن أن تنفصل عما علق بها من معان في الاستعمالات السابقة، بل هي على العكس من ذلك تستأنف مسيرتها الدلالية، بما يضفيه السياق الجديد على المعاني السابقة (الدلالة تراكم من الاستعمالات عبر الأجيال والقرون).

للكلمة في الخطاب شروط ومواصفات ذكرها العلماء العرب، من مثل عدم تنافر الحروف، وعدم الغرابة.

هناك نوع من الألفاظ تتميز بالدلالة الإيقاعية لحروفها: قضم - خضم، وتهز- توز)، ويمكن أن نمثل لها بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ (التوبة٣٨)

فلفظة (اثاقلتم) في نظام حروفها، وحركة التشديد على الثاء، والمد بعدها، ثم القاف، وهو من حروف القلقلة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخرج صوتها من الأنف، هذه الأمور أوضحت لنا المعنى قبل أن يَرِد علينا من جهة المعجم، فهي تصور لنا صورة ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط. (كذلك لفظة ضيزى في قوله تعالى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى النجم الآية٢٢)

- ب – سياق التركيب

إن التركيب هو الإطار الذي توظف فيه المفردات، فهو إذن إنشاء علاقات جديدة لأداء وظيفة تعبيرية وجمالية، وهذه الوظيفة تنجم عن طريقة معينة في التأليف بين الألفاظ، لإنشاء تلك العلاقات التي تتمثل في تلاؤم الألفاظ وتمازجها.

ومما يؤثر في التراكيب هو طريقةُ الربط فيما بينها، وهي قضية أشرنا إليها في المحاضرة الخامسة

عند الحديث عن شروط الخطاب السبع، حيث ذكرنا منها الانسجام اللغوي(من أشهر الذين تكلموا فيه من اللسانيين الغربيين مايكل هاليداي)، والذي يتحقق في النص من خلال مجموعة كبيرة من الآليات اللغوية، التي ترتقي من الوظيفة اللغوية الصرفة، إلى الوظيفة الدلالية، ومنها إلى الوظيفة التداولية، وأهم هذه الآليات التي تحقق الانسجام النصي، هي:

التضام (المعجم) كما في المثال الآتي: تفانت الزوجة في الإخلاص لزوجها تفانيا كاملا، لم تعرف المسكينة شيئا يحبه الزوج إلا فعلته.

إعادة اللفظ (التكرير) كما في قوله تعالى:اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الحذف: كقولنا: هل تحب اللون الأحمر؟ أفضل الأبيض، وكقولنا: الجار قبل الدار. أي: تخير الجار قبل الدار. وقولنا: بسم الله. أي: بدأت بسم الله.

الإحالة: كما في قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم٢١)

وقد تكلما عن بعضها في محاضرات سابقة، ولذلك سنركز الحديث على العنصر الأخير، وهو الإحالة.

مفهوم الإحالة

من التعريفات الواضحة للإحالة ما ذهب إليه بوهيمل باليك Bohumil palek بأنها: أي تعبير لغوي يتعلق بتعبير آخر في النص. وعادة ما يكون العنصرالمحيل لاحق، والمحال عليه (المرجع) سابقا.

إذن هي عملية معنوية ينشئها المتكلم في ذهن المخاطب، عن طريق إيراده ألفاظا مبهمة الدلالة، يشير بها إلى أشياء أو مواقف أو أشخاص

أو عبارات، أو ألفاظ، خارج النص أو داخله، سابقة عليها أو لاحقة، في سياق لغوي أو غير لغوي، ويقصد بذلك الاقتصاد في اللفظ، وربط اللاحق بالسابق، والعكس، بما يحقق الاستمرارية والتماسك في النص.

وتكون الإحالة على المحال إليه بوسائل كثيرة منها:

إعادة الذكر لفظا.

إعادة الذكر معنى.

الإضمار.

الإشارة إليه،

وصفه بموصول، أو صفة.

إلحاقه بالألف واللام.

أنـــــواعـــها

يفرق العلماء بين نوعين من الإحالة:

الإحالة الخارجية: وهي ذلك النوع الذي يوجه السامع إلى شيء، أو شخص، في العالم الخارجي، ومن أمثلته اسم الإشارة في قوله تعالى: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (الأنبياء ٦٣)، وقول الفرزدق، في علي بن الحسين زين العابدين، حين رأى الأمير الأموي هشامُ بن عبد الملك زينَ العابدين في مكة المكرمة والوفود تتسابق اليه، استنكر ذلك وسأل من هذا ؟ فاجابه الفرزدق قائلا :

:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ = وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هذا ابنُ خَيرِ عِبادِ الله كُلّـــــهِمُ = هذا التّقيّ النّقيّ الطّاهِرُ العَلَمُ

هذا ابنُ فاطمَةٍ، إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ = بِجَدّهِ أنْبِيَاءُ الله قَدْ خُتِـــمُوا

وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَن هذا؟ بضَائرِه = العُرْبُ تَعرِفُ من أنكَرْتَ وَالعَجمُ

الإحالة الداخلية: وهي ذلك النوع الذي يحال فيه السامع على عنصر لغوي داخل النص.

وهناك أربعة أنواع من الإحالة هنا:

الإحالة بالضمير: وهي أكثر الإحالات شيوعا، ومن أمثلته الضمير في الآية السابقة، في لفظة (كبيرهم)، إذ يحيل الضمير على الآلهة التي وردت قبل ذلك في قوله: قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيم (الآية٦٢) وتقسم الضمائر في العربية من حيث إحالتها إلى ثلاثة أقسام:

ضمير المتكلم (أنا، نحن).

ضمير المخاطب (أنت، أنتم، أنتن)

ويشترك هذان النوعان في كون إحالتهما جارجية دائما لارتباطها بالمقام التخاطبي.

ضمير الغائب (هو، هي، هم، هن). وهو النوع الذي يهمنا في دراستنا هذه، لأهميته في تحقيق التماسك في الخطاب،

ولا بد من التطابق بين الإحالة والمرجع هنا في العدد والنوع، وقد تغيب المطابقة لغرض دلالي، وهو ما سماه البلاغيون الإلتفات، مثل: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (الكوثر ١-٢)

وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (الأعراف٥٧)

والإحالة في العربية تكون على متقدم عادة، مثل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء٥١)، وقد تكون على متأخر، وهو قليل لا يتعدى مواضع معينة منها: مع رُبَّ (رُبَّهُ رَجُلا)، أو ضمير القصة، أو الشأن كقوله تعالى:﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ (يوسف٩٠).

ومن الإحالات الداخلية ما يعرف بضمير الشأن، أو القصة، مذكورا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج٤٦)، التي تحيل فيها الضمير (ها) على المحتوى الدلالي والمفهوم من الكلام، أو مقدرا كما في قوله تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْواهُم أَنِ الحَمْدُ للَّهِ ربِّ العَالَمِين﴾ (يونس١٠).

الإحالة بأداة التعريف: ومن أمثلته قوله تعالى: كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ (المزمل١٥-١٦). وقد تأتي في بعض التراكيب عوضا عن إحالة الضمير، كما في قوله تعالى: فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (النازعات٤١)

الإحالة بالمقارنة: وتتم بمجموعات من الألفاظ، منها:

ألفاظ المقارنة الدالة على التشابه ومنها: مشابه، شبيه.

ألفاظ المقارنة الدالة على التطابق، ومنها: نفسه، عينه، مطابق، مكافيء.

ألفاظ المقارنة الدالة على التخالف، ومنها: مخالف، مختلف، مغاير.

كما تكون بالمقارنة الداخلية بأسماء التفضيل، مثل قوله ﷺ: اليد العليا خير من اليد السفلى.

وكما في قوله تعالى: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ (آل عمران١١٨)، إذ ربطت كلمة (أكبر) - التي هي لفظ من ألفاظ المقارنة – الجملة الثانية بالأولى، لأنه لا يكون الشيء أكبر إلا بالموازنة بشيء آخر، ولا يعرف ذلك إلا بالرجوع إلى ما سبق في الآية.

الإحالة بالإشارة: كما في قولنا: ما رأيك في ذلك الكتاب الذي أهديته لك الأسبوع الماضي.

وتتميز ألفاظ المقارنة أنها تعبيرات لا تستقل بنفسها، وهو ما يؤهلها لأن تكون وسيلة من وسائل التماسك، ولذا فأينما وردت هذه الألفاظ اقتضى ذلك من المخاطب أن ينظر إلى غيرها بحثا عما يحيل عليه المتكلم، وكما هو الأمر مع الضمائر، وأسماء الإشارة، يحتمل أن يكون المرجع خارجيا، ويحتمل أن يكون داخليا، وإذا كان داخليا فإما أن يكون المرجع متقدما، أو يكون متأخرا.

ملاحظــة:

إن التماسك النصي غير كاف لتحقيق الربط الكلي بين مستويات الخطاب المختلفة: مستوى اللغة، ومستوى الدلالة، ومستوى التداول، ومن ثم لابد من تضافر عناصر الربط في المستويات الثلاث لتحقيق الربط الشامل، إذن يتضافر مع التماسك النصي التناسقُ الدلالي، والترابطُ السياقي.

مع خالص تمنياتي لكم بالتوفيق والنجاح

اخوكم انشتاين